الفكر الإصلاحي العقدي في تفسير الشيخ عبد الحميد بن باديس

نادية وزناجي
جامعة الحاج لخضر/ باتنة

مقدمة:

لقد اهتم المنهج القرآني اهتماما بالغا بإصلاح العقيدة وترسيخ جذورها وتحريرها من زيف الجمود، وتطهيرها من الأوهام والشبهات، ليجعل من العقيدة الصحيحة القوية انطلاقة لإصلاح كل مناحي الحياة "فالعقيدة الصحيحة هي التي تقدم للإنسان التفسير الصحيح الشامل للوجود الكوني والإنساني[1].

والانحراف في العقيدة ينشأ عنه انحراف العبادات والعادات ويترتب على ذلك فساد في السلوك الاجتماعي. وقد كانت الكارثة الأولى التي أصيب بها المجتمع المسلم هي ضعف عقيدته، "فضعف العقيدة يتبعه الضعف العام في الفرد، وفي الأسرة، وفي المجتمع، وفي كل جانب من جوانب الحياة"[2].

---

[1] – عبد الحميد عبد المنعم مذكور، دراسات في العقيدة الإسلامية، دار الثقافة العربية، القاهرة، بدون تاريخ، ص 32.

[2] – السيد سابق، العقائد الإسلامية، دار الفكر، بيروت، ط3 (1403هـ - 1983م)، ص 15.

فانطلاقا من دور العقيدة المهم في عملية الإصلاح فإن المنهج الإسلامي في مواجهته للجاهلية الأولى بانحرافاتها وعاداتها وسلوكياتها وتقاليدها بدأ في إصلاح العقيدة وتمكينها في قلوب الناس. ولم يبدأ في مواجهة أو معالجة تقاليد الجاهلية وسلوكياتها؛ لأنها إنما تقوم على جذور اعتقادية فاسدة، فعلاجها من فوق السطح قبل علاج جذورها الغائرة جهد ضائع، حاشا للمنهج الرباني أن يفعله، إنما بدأ من عقدة النفس البشرية الأولى، عقدة العقيدة، بدأ بإجتثاث التصور الجاهلي الاعتقادي جملة من جذوره، وإقامة التصور الإسلامي الصحيح.

فبينَّ للناس فساد تصوراتهم عن الألوهية، وهداهم إلى الإله الحق وحين عرفوا إلههم الحق بدأت نفوسهم تستمع إلى ما يحبه منهم وما يكرهه، وما كانوا قبل ذلك ليسمعوا أو يطيعوا أمرا ولا نهيا، وما كانوا ليُقْلِعُوا عن مألوفاتهم الجاهلية مهما تكرر لهم النهي، وبذلت لهم النصيحة.

"لذلك لم يبدأ المنهج الإسلامي في علاج رذائل الجاهلية وانحرافاتها من هذه الرذائل والانحرافات إنما بدأ من العقيدة حتى إذا خلصت نفوسهم لله وأصبحوا لا يجدون في أنفسهم حرجا مما قضى الله أو خيرة في أمر أو نهي إلا ما يختاره الله، عندئذ بدأت التكاليف، وبدأت عملية تنقيته من رواسب الجاهلية الاجتماعية والاقتصادية، والنفسية والأخلاقية والسلوكية"[1].

وتؤكد هذا المعنى أم المؤمنين السيدة عائشة —رضي الله عنها– في قولها: "إنما أنزل أول ما أنزل من القرآن سور فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى

[1] – سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ط15 (1408هـ - 1982م)، ج2، ص 973.

الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر ولا تزنوا لقالوا: لا ندع الخمر ولا الزنا أبدا"[1].

فالمتتبع لخط سير الدعوة الإسلامية في عهدها النبوي يدرك هذه الحقيقة الناصعة، وهكذا تتبدى لنا عظمة المنهج الإسلامي فإنه بدأ من حيث يجب أن يكون البدء.

غرس في القلوب شجرة العقيدة الصحيحة النقِيَّة، وروى هذه الشجرة ورعاها حتى امتدت جذورها وعظم ساقها وأينعت أغصانها وطابت ثمارها، وآتت أكلها كل حين بإذن ربها"[2]، وعلى هذا المنهج سار التفسير الشفاهي في هدفه الإصلاحي، "ولذا كان لابد لمن يريد الإصلاح الاجتماعي من أن يبحث عن نقطة تصلح أن تكون مركز انطلاق يتحرك المجتمع كله منها، ويكون هذا المركز قويا قادرا على إمداد المجتمع الذي ينطلق منه بالطاقة التي لا تضعف ولا تنفذ، ويكون كذلك موثوقا به كل الثقة، يشهد الجميع له بذلك من أجل الصفات المميزة له، والتي لا يشاركه فيها غيره، ولن يكون كذلك إلا الله سبحانه وتعالى"[3] فالإيمان بالله، والاعتماد عليه، والارتباط به على أوثق ما يكون الارتباط هو وحده الذي يصلح أن يكون بداية إصلاح اجتماعي رفيع. وهو الذي يصلح أن يقيم مجتمعا سعيدا لا يشقى، قويا لا يقهر، آمنا لا يفزع ولا يخاف، والعقيدة أساسها إيمان بالله واعتماد عليه، وهو إيمان يحكم

---

[1] – البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، ج3، ص 227.

[2]– محمد السيد يوسف، منهج القرآن الكريم في إصلاح المجتمع، دار السلام، القاهرة، ط1 (1422 هـ– 2002م)، ص 139.

[3]– حسن أيوب، السلوك الاجتماعي في الإسلام، دار السلام، القاهرة، ط1 (1422هـ– 2002م)، ص 28.

تصرفات المؤمن ويدير وجهه إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فلا يتصرف ولا يتحرك، ولا يصنع أو يتاجر، ولا يسوس أو يدبر، ولا يعبد الله أو يعامل الناس إلا من خلال هذا الكتاب وهذه السنة. "ومن هنا ندرك لماذا ظلت قضايا العقيدة تشغل المسلمين وينزل القرآن بها بدون انقطاع طيلة ثلاثة عشر عاما بمكة؟ كما ندرك السبب في أن جميع التشريعات الفرعية التي أنزلت بالمدينة ارتبطت بالإيمان ارتباطا وثيقا، حتى كان القرآن إذا حضهم على أمروهم بالمدينة قال لهم افعلوا كذا وكذا إن كنتم تؤمنون بالله أي إذا كانت عبوديتكم خالصة لله وحده دون سواه، كقوله على سبيل المثال: ﴿**ولا تأخذكم بهم رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر**﴾ "النور/2"، وقوله تعالى: ﴿**فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين**﴾ "التوبة/13".

مثل العلماء المصلحين كمثل الماء المعين، هذا يسوقه الله إلى الأرض الجرز فتهتز بعد همود، وتربو بعد جمود، ما تشتهيه وتلذ الأعين، وأولئك يبعثهم الله في أمتهم فيؤذون فيها فتستيقظ بعد رقود، وتتحرك بعد ركود، وتنهض بعد قعود، وتنشط بعد خمود، وترشد بعد غواية، وتتآلف بعد تخالف، وتتعارف بعد تناكر، وتتصالح بعد تدابر، وتنسجم بعد تنافر، وتتوحد بعد تفرق، وتتخلق بعد انحلال، وتنتظم بعد اختلال، وتصح بعد اعتدال، وتهتدي بعد ضلال، وتتذكر بعد نسيان، وتتآخى بعد عدوان.

لقد كان الناظر إلى الشعب الجزائري – قبل أن يؤذن فيه العلماء المصلحون – يحسبه يقضا وهو راقد، متحركا وهو هامد، نشطا وهو خامد، حيا وهو جامد، متحدا وهو متفرق، مهتديا وهو ضال، ذاكرا وهو ناس، شاهدا وهو غائب، وقد استمر على تلك الحال حينا من الدهر حتى بعث الله – عز وجل – فيه أئمة راسخين في العلم مخلصين في العمل، أمارين بالمعروف، نهائين عن المنكر، فدهوه إلى

الخير فأقبل، ونادوه إلى الكرامة فاستجاب، وعلموه من حقائق الدنيا والدين ما لم يكن له به علم، فاتخذ إلى ربه سبيلا، فأولئك «العلماء هم الذين أيقظوا الرأي العام من سباته»[1]. و« إن مجددي فكرة الوطن الجزائري هم بالأحرى هؤلاء الذين أسسوا جمعية العلماء، أي الشيخ عبد الحميد بن باديس وأشد أتباعه حماسة كالشيخ الإبراهيمي »[2]، و« أن ما قدمه العلماء لإثارة إحساس الجزائريين بالوعي الديني والقومي يفوق ما قدمه غيرهم » [3].

وقد كان على رأس هؤلاء العلماء في العصر الحديث الشيخ عبد الحميد بن باديس باعث النهضة العربية الإسلامية في الجزائر وهو رجل عملي أكثر منه نظري، وعليه فقد مارس الإصلاح العقدي من خلال تفسيره لكتاب الله، فأعطى للنصوص القرآنية أبعادا إصلاحية واقعية، حاول من خلال هذه الأبعاد أن يصوغ فكرا عقديا سليما رآه دعامة للإصلاح الشامل، لأنه كان يؤمن أن العقيدة هي الدعوة إلى الإسلام والتعريف به لأنها أصل الدين الإسلامي وأساسه، وعلى ضوئها يتشكل فكر الإنسان وسلوكه في واقع حياته، ومن ثم جعل الشيخ عبد الحميد بن باديس هذه المعطيات هدفه في تفسير آيات العقيدة، أما هدف هذا البحث فهو الوقوف على كيفية توجيه الشيخ للنص القرآني المفسر وتجاوزه للتفسير التقليدي إلى توظيفه في

---

[1] – شارل أندري جوليان: افريقيا الشمالية تسير، تعريب: المنجي سليم وآخرون، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر، تونس، الدار التونسية للنشر، 1976، ص 133.

[2] – محمود قاسم، الإمام عبد الحميد بن باديس، الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، القاهرة، دار المعارف، 1968Lacouture في كتابه Hommes.، ص 28، وهو ينقل

[3] –Alistair Horne: Histoire de la guerre d'Algérie. Traduit de l'anglais par Yves du Guerny,paris,Albin Michel, 1980, p 39.

عملية الإصلاح العقدي. وعليه سأحاول الوقوف على خصائص هذا الفكر العقدي الإصلاحي بالتأصيل لهذا التراث عبر التعريف بالعلامة وإسهاماته العقدية العلمية من خلال تفسيره لكتاب الله، وإحكام الصلة بين النص وبين الواقع دون تكلف أو مبالغة.

ولتحقيق هذا الهدف تظافرت مجموعة من المناهج العلمية على تحقيقه: المنهج التاريخي والاستقرائي والوصفي والتحليلي، أما عن المنهجية المتبعة في هذا المبحث فهي كالآتي: فيما يتعلق بالمحور التاريخي حول الحياة الخاصة للشيخ وعوامل تكوين شخصيته وإسهاماته وآثاره العلمية فاعتمدت منهجية الاستقراء والدراسة الوصفية، أما فيما يتعلق بالمحور الثاني والثالث فاعتمدت تقديم نماذج تطبيقية من تفسيره للنصوص مُعلّقة على ذلك ومبرزة لأهم النتائج التي أمكن استخلاصها من خلال هذا العمل الذي يقدم صورة واضحة عن فكره العقدي بعد تحليل منهجه في تفسير هذه النصوص، التي تبرز بوضوح أهمية هذا البحث.

إن صلاح الأعمال رهين بحسن الاعتقاد هذا ما يؤكده الشيخ محمد المكي الناصري في تفسيره إذ يقول: «... وتتلخص هذه الرسالة الإلهية أولا وأخيرا في إصلاح أحوال الناس إصلاحا شاملا تصلح معه عقيدتهم، وتصلح معه شريعتهم، ويصلح معه سلوكهم ويصلح معه مجتمعهم... وهكذا يتسرب الإصلاح إلى كل زاوية من زوايا حياتهم الظاهرة والباطنة...» [1].

وهو عين المنهج الذي سار عليه الشيخ عبد الحميد بن باديس في إصلاحه العقدي من خلال تفسيره لكتاب الله عدته في الإصلاح.

[1] – التيسير في أحاديث التفسير، ج3، ص140-141.

وباستقرائي لهذا التفسير الموسوم بـ" مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير" وهو – قليل من كثير ضاع بسبب كسل طلابه–، وقفت على منهجه في الإصلاح العقدي عند تفسيره للنص القرآني الأثري وتوجيهه إياه وجهة واقعية أحكم فيها الصلة بين هذا النص وقضايا الواقع المعيش.

إذ اعتمد في هذا الإصلاح العقدي على محورين أساسين المحور الأول التركيز على مسائل أهم العقيدة والمحور الثاني تصحيح بعض المفاهيم العقدية الخاطئة، هادفا بذلك إلى بعد إصلاحي عقدي عن طريق التفسير الشفاهي.

بناء على ذلك تناولت هذا الموضوع الموسوم بـ " البعد الإصلاحي العقدي في تفسير الشيخ عبد الحميد بن باديس" وفق ثلاثة محاور :المحور الأول: الحياة الخاصة للشيخ عبد الحميد باديس، المحور الثاني: التركيز على أهم مسائل العقيدة، المحور الثالث: تصحيح بعض المفاهيم العقدية الخاطئة.

المحور الأول: الحياة الخاصة للشيخ عبد الحميد بن باديس

1–نسبه ومولده:

هو عبد الحميد بن باديس محمد المصطفى بن مكي بن باديس، وابن زهرة بنت علي بن حلول، الولد الأكبر لوالديه، ونسب أسرته عريق في الشرف والمكانة، معروف في قسنطينة، ومشهور بالعلم والثراء والجاه[1].

عرفت منه شخصيات تاريخية كبيرة، كان لها الأثر الكبير في الحياة السياسية، على مستوى منطقة المغرب العربي كلها، منها بلكين بن زيري[1]، والمعز بن باديس[2]. هذا

[1]– د/ عمار طالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج1، ص 71.

الأخير كان يفتخر به ابن باديس، لأنه كان يعتبر نفسه بمثابة خليفة له في مقاومة البدع والضلال، إذ كان جده يناضل الإسماعلية الباطنية، وبدع الشيعة في إفريقيا[3]، حتى إنه "انتقد دعوة العبيدين بإفريقيا وخطب للقائم العباسي، وقطع الخطبة للمستنصر العلوي سنة أربعين وأربعمائة فكتب إليه المستنصر يهدده"[4]. كما عرفت شخصيات أخرى متأخرة من نسبه العريق، منها القاضيان الشهيران بقسنطينة أبو العباس حميد بن باديس، وكان من كبار قضاة قسنطينة وأكثر علمائها شهرة، ومكي بن باديس أيضا.

أما عن مولد الشيخ عبد الحميد فقد ولد بقسنطينة سنة 1307 هـ الموافق للرابع من شهر كانون الأول سنة 1889م، ووالده هو الشيخ مصطفى بن مكي "من ذوي الفضل والمروءة والحفاظ على شعائر الدين، والغيرة عليه، كان يحفظ القرآن ويتعهد بتلاوته، وخاصة في شهر رمضان حتى أنه أمضى ليالي شهر رمضان كلها سنة 1351 هـ يقيم صلاة التراويح في مسجد سيدي قموش، الذي بناه على نفقته"[5].

---

[1]–ولاه المعز لدين الله الفاطمي أمر أفريقا والمغرب، وسماه يوسفا، وكناه أبو الفتوح وسماه سيف العزيز بالله،، وامتدت فترة ولايته من سنة 362هـ إلى سنة 373، وتوفي373 هـ، أنظر د. السيد عبد العزيز السالم، تاريخ المغرب العربي الكبير، ج 2، ص: 61 – 655.

[2]–خلف ابن باديس بن المنصور على ولاية إفريقيا والمغرب الأوسط من سنة 406 هـ إلى 458 هـ، نفس المصدر.

[3]– د. عمار طالي: ابن باديس حياته وآثاره 61، ج1، ص: 12

[4]– ابن خلدون: تاريخ العلامة ابن خلدون م4، ص 130 - 131

[5]– علي مرحوم: مجلة الأصالة، س4، ع 24، ص 113.

كما أنه خصص معلما لتعليم القرآن، في ذلك المسجد على نفقته، هذا من ناحية تدينه ومدى حفاظه على شعائر وفرائض الدين، أما من ناحية مركزه الاجتماعي فقد كان يتمتع بمكان مرموق، ومنزلة عالية لدى السلطات الفرنسية، كما عرف في وقته لدى الأوساط الإسلامية بدفاعه الدائم عن مطالب السكان المسلمين بالعمالة القسنطينية[1]، أما والدته فهي زهرة بنت علي بن جلول تنتمي إلى إحدى الأسر الشريفة المشهورة بقسنطينة وهي أسرة عبد الجليل.

2-أطوار حياته:

وقد مرت حياة ابن باديس بأربعة أطوار كبرى هي:

- طور الصبا والشباب:

نشأ ابن باديس في صباه وشبابه، كما ينشأ عادة أبناء الأسر الشريفة ذوات المجد والدين، إذ استنشق ثقافته وقيم وتراث أمته وأجداده، وأسرته منذ صباه، فتلقى تعليمه الأول والأولي على يد والده، الذي علمه مبادئ القراءة والكتابة في البيت، رافضا بذلك إلحاقه كغيره من أترابه بالدراسة في المدارس الفرنسية الاستعمارية، ومفضلا تربيته تربية إسلامية صافية خالصة يحصن شخصيته - وهو في هذا السن الخطيرة - من التشوه بالثقافة والقيم الغربية، التي يغذي بها الاستعمار عقول الطلبة الجزائريين الذين يلحقون بمدارسه، فيربيهم وينشئهم عليها، ولقد كان هذا الأب- أيضا — من هذا الصنيع مع ابنه —إضافة إلى ما سبق — حرصه على صناعة وصياغة شخصيته، على مرأى ومسمع ومتابعة منه، حتى يخرجه عالما مكينا في العلم عامة،

[1]- د. عمار طالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج 1، ص74.

وفي الدين وعلومه خاصة، ويكون بالتالي خير خلف لصالح سلف من أسرته وأجداده[1].

– طور التحصل العلمي بالزيتونة:

بعد أن استكمل ابن باديس تكوينه الأسري، وتحصيله العلمي القاعدي بقسنطينة ارتأى السفر إلى تونس، للدراسة بجامعها جامع الزيتونة، ذلك سنة 1908م وعمره آنذاك لم يتجاوز الخامسة عشر سنة، ودافعه في ذلك الإستزادة علميا وفكريا وثقافيا في هذه المؤسسة العلمية العريقة الشهيرة، وكذا تحقيق مطلب أستاذه لونيسي، وأمنية والديه اللذين حرضاه وشجعاه على السفر[2].

مكث الإمام أربع سنوات كاملة، قضاها دارسا ومدرسا، وهي فترة يعتبرها الإمام منعطفا هاما في حياته العلمية التكوينية حيث يقول عنها: "ما كنت لأنسى أربع سنوات قضيتها بالزيتونة، شطرها متعلما، وشطرها متعلما ومعلما، وكان لي آباء وإخوة وأبناء فأكرم بهم من آباء وأكرم بهم من إخوة وأكرم بهم من أبناء"[3]. كان ينشط جادا في تحصيله للعلم، والاتصال بالمشايخ والعلماء هناك، حتى أنه استطاع على غرار الطلبة المتفوقين، اختصار مراحل الدراسة التي تستلزم قضاء الطالب سبع سنوات حسب البرامج المقررة إلى ثلاث سنوات فقط[4]، ومع نهاية السنة الدراسية 1910 – 1911م، تحصل على شهادة التطويع بتفوق، وسنه لم يتجاوز بعد ثلاثا

---

[1]– أنظر جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر لعبد الرشيد زروقة، 40.

[2]– محمد الصالح الجابري: النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900 – 1962م، ص 59.

[3]– الشهاب: ج 10، م 12، ص440.

[4]– محمد الصالح الجابري: المصدر السابق، ص: 61

وعشرين سنة، وكمحصلة لجهده واجتهاده العلمي والدراسي بالزيتونة، كان ترتيب الإمام الأول بين جميع الطلبة الناجحين، كما كان الطالب الجزائري الوحيد الذي تخرج من الزيتونة في تلك الدورة[1].

– طور الرحلة إلى المشرق:

كان تاريخ ارتحال الإمام من قسنطينة نحو المشرق، وفي السنة نفسها التي رجع منها من تونس أي عام 1913م، قبيل الحرب العالمية الأولى، وعمره آنذاك أربعة وعشرون سنة، ومر ابن باديس في طريق سفره إلى بيت الله الحرام بمصر، فأقام بها مدة طويلة من الزمن، ليكمل فيها بعد مشوار سفره، ويستقر به المقام في المدينة المنورة، واستقر المقام بابن باديس بالمدينة المنورة التي كانت آنذاك مقصد مجمع العلماء وطلبة العلم، من جميع أصقاع العالم الإسلامي، وهناك التقى بالشيخ الجليل حمدان لونيسي، كما التقى بشيوخ وعلماء آخرين، منهم على الخصوص الشيخ حسن الهندي.

– طور الاستقرار بقسنطينة:

مباشرة بعد أن رجع ابن باديس إلى الجزائر، واستقر بقسنطينة، شرع في ممارسته العمل الإصلاحي والجهادي والتربوي للناشئة، وذلك بالجامع الأخضر وبسعي من أبيه لدى الحكومة، التي استصدر منها رخصة لابنه، تسمح له بالتدريس، وفي هذا يقول: "فأذنت لي بالتعليم فيه، بعد ما كانت منعتني من التعليم بالجامع الكبير بسعي المفتي في ذلك العهد، الشيخ المولود بن الموهوب".

فلم يكن يعرف الراحة في ممارسته العمل الإصلاحي الجهادي، قصد تغيير وإعادة صياغة بناء الإنسان الجزائري عامة، والناشئة خاصة، فكان"يعلم الطلاب

[1]– المصدر نفسه، ص: 61

مختلف الدروس ويفسر القرآن للمواطنين بالليل (العامة والخاصة)". واستمر يتابع دروسه دون ملل لا يعرف الراحة، وينتقل عبر الوطن ويلقي دروس الوعظ والإرشاد في المساجد، والمحاظرات في النوادي يجمع حوله الرجال الذين كانت نفوسهم فيها حاضرة علي المشاركة معه في الحصة"[1] حتى إنه كان يلقي في اليوم الواحد عشرة دروس أو أكثر وكانت "الدروس تلقي بدءا من الفجر, حتى الساعة العاشرة، ثم من الظهر حتى العصر"[2] وواصل عمله على هذه الوتيرة دون انقطاع إلى أن تم تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في أيار سنة1931م.

وكانت حياته ومماته للإسلام والجزائر، ويسأل نفسه لمن أعيش أنا؟

فيجيب نفسه على نفسه: أعيش للإسلام والجزائر وهكذا عاش ابن باديس حياة الشظف والتعب والكد، وكان بإمكانه أن يعيش حياة أخرى تختلف عن هذه جملة وتفصيلا، معززا مكرما في بيت الأبوة المحترم، لا ينقصه شيء، ولا تعوزه حاجة، ولكنه أبى إلا أن يحيا مجاهدا يعلم ويرشد ويعظ ويحرر، ويتنقل ويتعبد، ويتأمل ويحقق، لا يهدأ له بال، ولم يشفق على نفسه ولا على جسمه, ولم يبال لصحته في سبيل مبدأ عظيم وأمة يسوءه حالها، ويدمي نفسه احتلالها، ويدفعه للبذل والسهر".[3]

---

[1]- محمد خير الدين: مذكرات، ص 103

[2]- جريدة الفجر، ع 1989، ص 12

[3]- د. عمار طالبي: ابن باديس حياته وآثاره، ج 1، ص 94 -95

وكانت إقامته قبل وفاته محددة من طرف الإدارة الاستعمارية في مدينة قسنطينة، ليس له أن يبرحها إلى غيرها من نواحي البلاد، مما جعل وفاته غير طبيعية.[1]

في هذه الظروف الحياتية الصعبة والشاقة، وافى الأجل الإمام ابن باديس في الثلاثاء 8 ربيع الأول 1395هـ المرافق لـ 16 نيسان 1940.[2]

2-عوامل تكوين شخصيته:

هناك مجموعة من العوامل تظافرت على تكوين شخصية عبد الحميد بن باديس من الناحية النفسية، والأخلاقية، والوطنية، فجعلت منه هذه الشخصية الفذة في تاريخ الجزائر الحديث.

وقد أشار إليها في خطاب له في وفد المحتفلين بمناسبة ختمه لتفسير القرآن في مدينة قسنطينة في يونيو (جوان) 1938 وأرجع إليها الفضل فيما بلغه من مكانة علمية واجتماعية وسياسية مرموقة في الجزائر.

ونحن نذكرها مرتبة كما وردت في خطابه المذكور.

أولا: توجيه والده الصالح له:

العامل الأول هو توجيه والده الصالح له حيث رباه تربية دينية وخلقية فاضلة، ووجهه وجهة صالحة في الحياة، واختار له طريق العلم على ما عداه وانتقى له معلمين ممتازين يجمعون إلى العلم، والتقوى، الصلاح والاستقامة الخلقية وأسبغ عليه رعايته وهو صغير، وأعاشه وبراه كالسهم، وكفاه مؤونة الحياة وهو كبير، وحماه من كيد

[1]- حسن عبد الرحمن سلوادي: عبد الحميد بن باديس مفسرا، ص 56

[2]- المصدر نفسه، ص 57.

الكائدين، وحسد الحاسدين، ووقاه من بطش الإدارة الاستعمارية ووفر له كل أسباب الحياة كي يتفرغ لأداء رسالته على الوجه الأكمل، دون أن يشغل فكره أو باله بالناحية المادية اللازمة لحياته.

وقد كانت نفسية عبد الحميد بن باديس تنفر بطبيعتها من الانغماس في الأمور المادية، ولا تميل إلى زخرف الحياة وبهارجها، لذلك اكتفى من دنياه بالزاد القليل الضروري للحياة فقط، واستغنى عن كل ما عداه، فقلت حاجاته، وانحصرت مطالبه في أمور قليلة، واستغنى عن كل ما عداه، فقلت حاجاته، وانحصرت مطالبه في أمور قليلة، فلم يحمل والده عناء كبيرا أو عبئا ثقيلا في إعاشته هذا بالإضافة إلى ثراء أسرته العريض الذي مكنها من القيام بتلبية مطالبه صغيرا وكبيرا دون إرهاقات أو إعنات وقد كان والده رجلا صالحا ومن حفظة القرآن الكريم كما ذكرنا من قبل، ولا يخفى عليه الدور الفعال الذي تلعبه الأسرة في تربية الطفل، ورعايته، وتوجيهه من الناحية النفسية، والخلقية، والاجتماعية، فهي المدرسة الأولى التي يتقرر فيها مصيره مستقبلا كما يؤكد ذلك علماء التربية وعلم النفس للطفل.

يقول إبن باديس مصورا دور هذا العامل في تكوينه: « إن الفضل يرجع أولا إلى والدي الذي رباني تربية صالحة ووجهني وجهة صالحة، ورضي لي العلم طريقة اتبعها ومشربا أرده، وقاتني وأعاشني وبراني كالسهم وراشني وحماني من المكاره صغيرا وكبيرا وكفاني كلف الحياة[1] ».

ثانيا: علم أساتذته وتوجيههم ونصحهم له:

[1]- « الشهاب »، جـ 4 – 5، م 14، ص 288 – 291، عدد يونيو ويوليو (جوان – جويلية)، سنة 1938.

والعامل الثاني: يعود إلى البيئة العلمية التي نشأ فيها ابن باديس وتكون فيها عقله،وذهنه، وفكره.

وقد سبق وأن ذكرنا بأن والده كان يختار له الأستاذة الذين يعهد إليهم بتعليمه بعناية بالغة، حرصا منه في أن يوفر لابنه الجو التربوي والعلمي السليم، لذلك كان لهؤلاء الأستاذة تأثير كبير عليه طول حياته.

فقد تعهدوه بالرعاية والتوجيه والصقل المستمر لمواهبه واستعداداته الفطرية الكامنة، وتجاوزوا به حد التعليم والتثقيف إلى التربية والتهذيب والتوجيه السديد، يقول ابن باديس « ثم لمشائخي الذين علموني العلم، وخطوا لي مناهج العمل ولم يبخسوا استعداد يحقه»[1].

ثالثا: مؤازرة زملائه في جمعية العلماء له:

والعامل الثالث: يعود إلى مؤازة زملائه وإخوانه في جمعية العلماء الذين ساندوه في الأعمال التي قام بها من أجل النهضة الجزائرية، وتحملوا معه المشقات والأتعاب واحتضنوا معه الحركة الإصلاحية السلفية التي بدأها قبل الحرب العالمية الأولى حتى أينعت وازدهرت فعمت الجزائر من أدناها إلى أقصاها في الفترة ما بين الحربين العالميتين وفي الأربعينات والخمسينات من هذا القرن.

ومن عادة ابن باديس أنه كالجندي المجهول ينسى نفسه وينسب الفضل فيما حققه من عمل – للأمة والوطن – إلى إخوانه وزملائه في جمعية العلماء الذين شاركوه في تحمل المسؤولية ووقفوا إلى جانبه في وقت المحنة والشدة.

[1]- ابن باديس « الشهاب »، المرجع السابق، ص 288 – 291.

وقد كانت عصبة ابن باديس التي برزت إلى الوجود في عام 1931 في منظمة«جمعية العلماء المسلمين الجزائريين»[1]. عصبة تتصف بغزارة العلم والوطنية الصحيحة، وتعمل في انسجام وَوُّد قلّ أن يوجدا في الهيآت الأخرى، يقول ابن باديس:«إذا كنت استمد القوة والحياة فإنما استمدها ممن أولوني شرف الثقة، والإخلاص لديني وأمتي، وأخص منهم الأسود الكبار، وهم إخواني الأقوياء من رجال العلم الذين أجدني مهما وقفت موقفا إلا وجدتهم معي كالأسود[2]»، لذلك كان هؤلاء العلماء من زملائه ورفاقه في جمعية العلماء عاملا قويا من عوامل تكوين شخصيته، وبروزها على الشكل الذي عرفها الناس به، صلبة في الحق، ثابتة على المبدأ، قوية الإيمان بالله ونصره، لا تتغير، ولا تتزعزع في وجه العواصف مهما اشتد هياجها، وطمى سيلها.

ومن بين العلماء الذين أشار إليهم ابن باديس في كلمته الآنفة الذكر نذكر العلماء التاليين على سبيل المثال لا الحصر:

1 – الشيخ محمد البشير[3] الإبراهيمي:

---

[1]– تكونت جمعية العلماء في 05 مايو سنة 1931 برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي انتخبه الأعضاء للرئاسة بالغجماع وهو غائب وكان مقرها في بداية الأمر في نادي الترقي الموجود في ساحة الشهداء الآن بالعاصمة، وبعد الحرب العالمية الثانية أصبح لها مركز خاص اشترته لهذا الغرض، يوجد في حي القصبة بالعاصمة.

[2]– « الشهاب »، جـ 07، م 15، ص 346/ عدد أغسطس (أوت) سنة 1939/ « وابن باديس حياته وآثاره »، جـ 2، ص 144.

[3]– ولد في عام 1889 في قرينة أولاد إبراهيم بالقرب من مدينة سطيف عمالة قسنطينة في ذلك الوقت وتعلم على يد والده وعمه وأكمل تعليمه في الحجاز بعد هجرته إليها عام 1911 ملتحقا بوالد الذي هاجر قبله في 1908، ثم رجع إلى الجزائر في عام 1920 وشارك في تأسيس جمعية العلماء وكان رئيسها لعدة سنوات وبعد وفاة ابن باديس انتخب رئيسا لها وعمل على توسيع نطاقها واستمر رئيسا لها حتى توقفت عن العمل في عام

وهو رفيق ابن باديس وزميله في قيادة الحركة الإصلاحية السلفية في الجزائر ونائبه في رئاسة جمعية العلماء، ثم قاد جمعية العلماء بعد وفاته وقد تعرف عليه ابن باديس في المدينة المنورة سنة 1913 عندما ذهب إلى أداء فريضة الحج كما سبق أن ذكرنا.

وربطت بينهما صداقة قوية لم تنقطع إلا بوفاة ابن باديس في عام 1940 حيث خلفه الإبراهيمي في رئاسة جمعية العلماء وقادها بمهارة حتى أدت رسالتها كاملة للأمة بعد وفاة ابن باديس كما أداها كاملة في حياته.

2 – الشيخ الطيب العقبي[1]:

وقد كان من أبرز رجالات جمعية العلماء وهو صحافي قدير وصاحب جريدة «الإصلاح» وقد كان شخصية علمية ممتازة كما كان خطيبا مصقعا يستطيع أن يحرك أوتار قلوب الجماهير وعواطفهم بقوة بيانه وفصاحة لسانه ويوجههم إلى حيث يريد، وقد تولى رئاسة تحرير جريدة البصائر لسان حال جمعية العلماء عند إصدارها فترة من الوقت.

وكانت دائرة عمله هي العاصمة ومنطقتها.أما مركز عمله فهو نادي (الترقي) وقد اختلف مع أعضاء جمعية العلماء قبل نشوب الحرب العالمية الثانية في السياسة التي ينبغي أن تتبعها الجمعية إذا نشبت الحرب، حيث رأى ضرورة تأييد فرنسا في الحرب فلم يوافقه أغلبية أعضاء الجمعية على هذا الرأي فقدم استقالته منها فأجيب

1956 أثناء الثورة الجزائرية، توفي يوم 19 مايو سنة 1965 بعد استقلال الجزائر ودفن بمقبرة سيدي محمد بالعاصمة.

[1]– أنظر ترجمته في كتاب نهضة الجزائر الحديثة، ج، 2 للأستاذ محمد علي دبوز، المطبعة العربية/الجزائر، 1971، ص 104-122.

إلى طلبه وقبلت استقالته ومنذ ذلك الحين استقل بالعمل وحده بعيدا عن جمعية العلماء التي كان أحد مؤسسيها.

3 – الشيخ العربي[1] بن بلقاسم التبسي:

تولى الشيخ العربي منصب الأمانة العامة لجمعية العلماء، فترة من الوقت ثم انتخب نائبا لرئيس جمعية العلماء الشيخ الإبراهيمي بعد وفاة ابن باديس.

وبعد إنشاء معهد الشيخ عبد الحميد بن باديس في قسنطينة في عام 1937 أصبح مديرا له.

وكان الشيخ العربي يمتاز بقوة الشخصية وصلابتها، والشجاعة في إبداء الرأي والدفاع عنه، والثبات عليه مهما كانت الظروف هذا إلى جانب ثقافة واسعة في العلوم الإسلامية والأدب العربي.

4 – الشيخ مبارك محمد الميلي:

وهو العالم والأديب والمؤرخ الكبير تولى رئاسة تحرير جريدة البصائر « لسان حال جمعية العلماء » قبل الحرب العالمية الثانية وكان أحد أركان جمعية العلماء، كما تولى الأمانة العامة لماليتها فترة طويلة الزمن.

وقد شارك الشيخ مبارك الميلي في بناء النهضة الإصلاحية والعلمية في الجزائر عن طريق التعليم والتأليف والصحافة وتكوين المدارس العربية الحرة.

هؤلاء العلماء الذين أشرنا إلى أبرزهم فقط كانوا ساعدا قويا للشيخ ابن باديس وعضدا له في كل الملمات وسندا قويا له في جميع المواقف السياسية الحرجة

---

[1]– اختطفه رجال المضلات الفرنسيون في مارس سنة 1957 أثناء الثورة الجزائرية من منزله بالعاصمة وذهبوا به إلى مكان مجهول ومن ذلك التاريخ لم يظهر له أثر رحمه الله رحمة واسعة.

التي وقفها دفاعا عن عروبة الجزائر وإسلامها وقوميتها وفيما قام به من أعمال جليلة في ميدان التربية والتعليم والإصلاح الديني والاجتماعي، يشرح لنا ابن باديس تأثير هذا العامل في شخصيته على النحو التالي: «... ثم لإخواني العلماء الأفاضل الذين آزروني في العمل من فجر النهضة إلى الآن فمن حظ الجزائر السعيد ومن مفاخرها التي تتيه بها على الاقطار أنه لم يجتمع في بلد من بلدان الإسلام فيما رأينا وسمعنا وقرانا مجموعة من العلماء وافرة الحظ من العلم، مؤتلفة القصد والاتجاه مخلصة النية متينة العزائم، متحابة في الحق، مجتمعة القلوب على الإسلام والعربية فهؤلاء هم الذين ورى بهم زنادي، وتأثل بطاردهم تلادي أطال الله أعمارهم ورفع أقدارهم[1]».

رابعا: تجاوب الشعب الجزائري معه:

والعامل الرابع يعود إلى الشعب الجزائري وما ينطوي عليه من خصال الكرم والنجدة والشهامة، وأصول الكمال الإنساني والاستعداد الكامل للبذل والعطاء والتضحية بكل غال ونفيس من أجل المصلحة العامة.

وقد عمل ابن باديس ما وسعه الجهد طيلة حياته على رعاية وتنمية هذه الخصال النبيلة في أبناء الجزائر ومحاولة تغليبها على عوامل السلبية والأنانية، والفردية، واللامبالاة، حتى تستطيع الجزائر أن تتغلب على واقعها الفاسد الذي وصلت إليه بعد قرن من الاحتلال الغاشم للوطن.

[1]- ابن باديس: « الشهاب »، جـ 4 – 5، م 15، ص 288 – 291، المرجع السابق.

ويصف ابن باديس الأمة الجزائرية بأنها « أمة معوانة على الخير، منطوية على استعدادات الكمال، وأنها ذات نسب عريق في المحامد والفضائل[1] ويعتبر الطينة الجزائرية طينة علم وذكاء إذا واتتها الظروف[2] ».

ويعلل في مقال مشهور له كتبه في الشهاب تحت عنوان « لمن أعيش ؟ » لماذا يتوجه بخدماته أول ما يتوجه بها إلى الجزائر ؟ – لأنها وطنه الخاص الذي تربطه به روابط عديدة تفرض عليه أن يقوم بواجبه نحوه وان كل مقوماته الشخصية مستمدة منه مباشرة، ثم أنه كلما أراد أن يعمل عملا إلا ووجد نفسه في حاجة إلى رجال وطنه وإلى أموالهم ومؤازرتهم إلى آخره، لذلك يخص وطنه بأعظم حبه وبأكبر خدماته يقول « أما الجزائر فهي وطني الخاص الذي تربطني بأهله روابط من الماضي والحاضر والمستقبل بوجه خاص، وتفرض عليا تلك الروابط لأجله – كجزء منه – فروضا خاصة وأنا أشعر بأن كل مقوماتي الشخصية مستمدة منه مباشرة فأرى من الواجب أن تكون خدماتي أول ما تتصل بشيء تتصل به مباشرة، وكما أنني كلما أردت أن أعمل عملا إلا وجدتني في حاجة إليه – إلى رجاله وإلى ماله، وإلى حاله، وإلى آلامه وآماله، كذلك أجدني إذا عملت قد خدمت بعلمي ناحية أكثر مما كنت في حاجة إليه[3] ».

وهكذا كان هذا العامل ذا أثر كبير في تكوين شخصية ابن باديس عندما يتكلم عن الشعب ونفسيته واتجاهه العام الذي التزمه طول حياته.

---

[1]– ابن باديس: جريدة « البصائر »، السنة الأولى، العدد 24/16، أبريل، سنة 1936.

[2]– « الشهاب »، جـ 5، م 5، ص 27 – 23، عدد مايو سنة 1929.

[3]– ابن باديس: « الشهاب »، ج 10، م 12، ص 424 – 248، عدد يناير، سنة 1937.

ويلاحظ أن الشيخ عبد الحميد بن باديس عندما يتكلم عن الشعب الجزائري أو الوطن الجزائري يكون كلامه مشوبا بمسحة من الإجلال والاحترام الكبيرين ويرى أن خدماته وتضحياته في هذا الميدان مهما كانت ضخمة تعتبر ضئيلة متواضعة ولذلك أذاب نفسه في عمل متواضع بالليل والنهار من أجل بعث النهضة في الشعب الجزائري وإيقاظه من نومه العميق كي يلاحق الأمم المتطورة ويسابق الشعوب الناهضة.

يقول ابن باديس مصورا أثر هذا العامل في شخصيته من الناحية العملية «... ثم لهذه الأمة الكريمة المعوانة على الخير المنطوية على أصول الكمال ذات النسب العريق من الفضائل، والحسب الطويل العريض في المحامد، هذه الأمة التي ما عملت يوما – علم الله – لإرضائها لذاتها وإنما عملت وما أزال أعمل لإرضاء الله بخدمة دينها ولغتها ولكن الله سددها في الفهم وأرشدها إلى صواب الرأي فتبينت قصدي على وجهه، وأعمالي على حقيقتها فأعانت ونشطت بأقوالها وأموالها وبفلذات أكبادها، فكان لها بذلك كله من الفضل في تكويني العملي أضعاف ما كان لتلك العناصر في تكويني العلمي[1]».

خامسا: تأثره بالقرآن الكريم:

والعامل الخامس والأخير من عوامل تكوين شخصية ابن باديس هو « القرآن الكريم »وهذا العامل يفوق غيره من العوامل السابقة وقد وهب له الشيخ عبد الحميد بن باديس الجزء الأكبر من حياته الخصبة يتعلمه ويتدبره، ثم يفسره للناس في الجامع

[1]- « الشهاب »، عدد خاص، جـ 4 – 5، ن 14، ص 288 – 231.

الأخضر بمدينة قسنطينة من أجل هدايتهم به حتى أتمه تفسيرا ودراسة في خمسة وعشرين عاما.

والمعروف أنه لم يختم القرآن تفسيرا في الجزائر أحدا غيره منذ ختمه « أبو عبد الله التلمساني » في المائة الثامنة[1] للهجرة. وذلك رغم مشاغله الكثيرة التربوية والصحافية والاجتماعية.

وكان ينشر البعض من تلك الدروس كافتتاحيات « للشهاب » تحت عنوان « مجالس التذكير » بعد صدورها ابتداء من عام 1925، غير أنه لم يتمكن – مع الأسف الشديد – من تسجيله كله لكثرة مشاغله، ولم يقيض الله له من يقوم بتسجيله نيابة عنه أثناء الدرس، وينشره على الناس كما فعل الشيخ رشيد رضا بدروس الإمام محمد عبده في التفسير حيث سجلها ونشرها في مجلة « المنار » ثم بعد جمعها في كتاب خاص تحت عنوان « تفسير المنار» بعد أن أضاف إليها دروسا أخرى من عنده مكملة لها على طريقة الإمام محمد عبده في التفسير.

وقد ضاع على الجزائر والمسلمين كنز لا يقدر بمال بسبب عدم تسجيل تفسير ابن باديس كله.

احتفال الجزائر بمناسبة ختم تفسير القرآن:

وقد عرفت الجزائر قيمة ما أتم الله على يد الأستاذ الإمام (بن باديس) فاحتفلت بهذا الختم كأعظم ما تحتفل به أنة ناهضة بأثر ناجح من آثار جهودها[1]،

[1]– أنظر مقدمة مجالس التذكير بقلم الشيخ البشير الإبراهيمي، ص 33، وقد نشرها الأستاذان محمد صالح رمضان وتوفيق محمد شاهين في كتاب تفسير ابن باديس نقلا عن كتاب مجالس التذكير المنشور، 1938.

واستمرت الاحتفالات في مدينة قسنطينة لمدة أسبوع وذلك في شهر يونيو (جوان) سنة 1938، وكانت بمثابة مظاهرة إسلامية وقومية عبرت فيها الجزائر عن أصالة عروبتها وعمق إسلامها وشدة تعلقها بكتاب العربية الأكبر (القرآن الكريم).

ومن غريب الصدف أن الشيخ ابن باديس قد ختم تفسير القرآن الكريم وجرت الاحتفالات الضخمة في نفس السنة التي أصدر فيها وزير داخلية فرنسا قانون 08 مارس سنة 1938 القاضي باعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر.

وقد صدر هذا القرار قبل احتفالات ختم تفسير القرآن الكريم بحوالي ثلاثة أشهر فقط، وبذلك ردت الجزائر ردا قويا مفخما على سياسة الفرنسية التي أراد المستعمرون أن يفرضوها على الجزائر العربية المسلمة، « **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون** »

وابن باديس له رأي في القرآن بني عليه كل أعماله في العلم والإصلاح والتربية والتعليم وهو أنه لا فلاح للمسلمين إلا بالرجوع إلى هديه والاستقامة على طريقه وهو رأي الهداة المصلحين[2] من قبله وقد استوحاه في كل أعماله التي قام بها في سبيل تحرير الجزائر من الخرافات والأساطير والشعوذة التي نشرها رجال الطرق الصوفية بين العامة الساذجة من جهة، وتحريرها من الاحتلال الجاثم على صدرها وبعثها بعثا جديدا على أساس عروبتها وإسلامها من جهة أخرى، وكان يقيس كل عمل يزمع القيام به في هذا الميدان على القرآن الكريم فإن اتفق معه قام به وإلا انصرف عنه.

---

[1]– محمد البشير الإبراهيمي: « الشهاب »، جـ 4 – 5، م 14/ ص 167، عدد خاص، يونيو (جوان – جويلية)، سنة 1938.

[2]– محمد البشير الإبراهيمي: « الشهاب »، عدد خاص، ص 168.

وكان يؤمن بأن نهضة الجزائر الحقيقية وتقدمها وتطورها المنشودين لا يمكن أن يقوما إلا على أساس الرجوع إلى تعاليم القرآن وهدايته أي إلا على أساس إحداث نهضة إسلامية شاملة تبعث روح العزة والكرامة في المواطنين، وتجعلهم يستعذبون الموت في سبيل الحياة وقد صور لنا ابن باديس تأثير القرآن الكريم في نفسيته وتكوين شخصيته كالآتي: « ثم الفضل أولا وأخيرا لله ولكتابه الذي هدانا لفهمه والتفقه في أسراره والتأدب بآدابه، وإن القرآن الذي كون رجال السلف، لا يكثر عليه أن يكون رجالا في الخلف، لو أحسن فهمه وتدبره وحملت الأنفس على مناهجه، ثم يقول إذا لم يكن في حياتي العلمية من لافت للقرآن إلا تلك الكلمة التي سمعتها من الشيخ النخلي وقد فعلت فعلها في نفسي وأوصلتني في فهمي للدرجة التي تحمدونها اليوم فإننا والحمد لله – نربي تلاميذنا على القرآن من أول يوم، ونوجه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم، وغايتنا التي ستتحقق أن يكون القرآن منهم رجالا كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الأمة آمالها وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها[1] ».

3 – الخصوبة في شخصية ابن باديس:

شخصية ابن باديس شخصية خصبة لا تقتصر خصوبتها وعظمتها على جانب دون آخر بل تشمل جوانب متعددة أجملها الشيخ البشير الإبراهيمي رفيق ابن باديس في حياته، وأعرف الناس بجوانب عظمته في الأمور الآتية، قال:« باني النهضتين: العلمية والفكرية بالجزائر وواضع أسسها على صخرة الحق وقائد زحوفها المغيرة إلى الغايات العليا، وإمام الحركة السلفية ومنشئ مجلة « الشهاب » مرآة

[1]– ابن باديس: « الشهاب »، عدد خاص، ج، 4 – 5، م 14، ص 291.

الإصلاح، وسيف المصلحين ومربي جيلين كاملين على الهداية القرآنية. والهدي المحمدي وعلى التفكير الصحيح ومحي دوارس العلم بدروسه الحية ومفسر كلام الله على الطريقة السلفية في مجالس انتظمت ربع قرن، وغارس بذور الوطنية الصحيحة وملقن مبادئها على البيان وفارس المنابر الأستاذ الرئيس الشيخ عبد الحميد بن باديس أول رئيس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأول مؤسس لنوادي العلم والأدب وجمعيات التربية والتعليم»[1]، فشخصية ابن باديس من هذه الناحية شخصية باهرة صادقة تملي قوتها وعظمتها على الخصوم والأصدقاء معا، بما اجتمع لها من صدق اللهجة وقوة الحجة وفصاحة اللسان وبلاغة البيان وشرف النفس ونبالة الحسب والنسب، واستقامة السلوك والثبات على المبدأ والزهد في الألقاب والتعالي عن الإطراء وتظهر جوانب[2] العظمة في شخصية ابن باديس في عدد من الأمور منها:

1 – أنه مرب استطاع أن يربي للجزائر جيلين من الرجال، كانا عماد النهضة العربية الإسلامية الحديثة بها.

وقد كان له رأي خاص في تربية النشء الجزائري تربية خاصة نظرا لظروف الجزائر الشاذة في الفترة ما بين الحربين العالميتين صاغه الشيخ البشير الإبراهيمي بقوله: « كانت الخطة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعنا بالمدينة المنورة في تربية

[1]– الشيخ محمد البشير الإبراهيمي: « الرجال أعمال » مقال في جريدة البصائر، العدد 44، سنة 1938.

[2]– راجع الشيخ البشير الإبراهيمي، عن عظمة ابن باديس، البصائر، عدد 105، 21951، ص 01، وعيون البصائر، ص 358.

النشء هي ألا نتوسع له في العلم، وإنما نربيه على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعددناه من تلامذتنا[1] ».

2 – وهو مفسر قدير للقرآن الكريم على الطريقة السلفية مراعيا مقتضيات العصر، ومتطلباته وشروط النهضة الحديثة يعتمد على تفسير القرآن الكريم وعلى بيان السنة النبوية من أفعال النبي وأقواله، ثم على أصول البيان العربي وسننه يمده إلى « جانب ذلك ذوق خاص في فهم القرآن كأنه حاسة زائدة خص بها يرفده بعد الذكاء المشرق والقريحة الوقادة والبصيرة النافذة، بيان ناصع، واطلاع واسع،وذرع فسيح في العلوم النفسية والكونية وباع مديد في علم الاجتماع ورأي سديد في عوارضه وأمراضه يمد ذلك كله شجاعة في الرأي وشجاعة في القول لم يرزقهما إلا الأفذاذ المعدودون في البشر[2]».

3 – وهو محدث له اطلاع واسع على أحاديث الرسول (ص) فاهم لها، عارف بصحيحها من فاسدها لا يستدل إلا بما ورد في كتب الصحاح المعروفة بصحة الرواية وصدق الرواة، وقد درس كتاب الموطأ في الحديث للإمام مالك بن أنس رضي الله عنه وختمه في بضع عشرة سنة.

واحتفلت قسنطينة بهذا الختم احتفالا كبيرا في صيف عام 1939 كما احتفلت من قبل ذلك بختم تفسير القرآن الكريم، وجاءت الوفود لتهنئ ابن باديس من نواح عديدة من القطر بهذا الحدث الإسلامي الكبير الذي تم على يديه.

---

[1]– الشيخ البشير الإبراهيمي: « مجلة مجمع اللغة العربية » بالقاهرة، العدد 21، ص 143، مرجع سابق.

[2]– الشيخ البشير الإبراهيمي: « مقدمة تفسير ابن باديس »، مجالس التذكير، ص 32، دار الكتاب الجزائري، سنة 1963.

4 – وهو مصلح ديني واجتماعي مجدد كان أول من دعا إلى الإصلاح على الطريقة السلفية في المغرب الإسلامي « كانت أول دعوة للإصلاح الإسلامي أعلنت في هذا الشمال الإفريقي على لسان الصحافة هي دعوتنا منذ بضع عشرة سنة في جريدة «المنتقد» الشهيدة وفي خلفها « الشهاب[1] ».

وقد قاوم البدع والخرافات والتقاليد الفاسدة وحارب رجال الطرق الصوفية الذين أكثروا من البدع التي شوهت وجه الدين النقي وصرفت المسلمين عن العمل الجاد لدينهم ودنياهم إلى خدمة مشائخ الطرق الصوفية، والتمسح بأعتابهم.

وكان داعية حضارة وتقدم ورقي وخير ومحبة بين جميع أبناء البشر ويحث أتباعه وتلامذته على المحبة والأخوة البشرية فيقول: « أنا زارع محبة، ولكن على أساس من العدل والإنصاف والاحترام مع كل واحد، من أي جنس كان ومن أي دين كان فاعملوا للأخوة ولكن مع من يعمل للأخوة، فبذلك تكون الأخوة صادقة[2] ».

والدعوة إلى الأخوة الإنسانية دعوة حضارية لا يصل إليها إلا من صفت نفسه وطابت سريرته وارتفع فوق مستوى الأحقاد والعنصرية البغيضة.

5 – وهو أديب، وكاتب بليغ يمتاز أسلوبه بالسلاسة والعذوبة والسهولة لا يستخدم السجع ولا يتكلف المحسنات البديعية وإنما يسير مع طبعه ويترك لقلمه العنان يسجل أفكاره ومشاعره بأسلوب مرسل ليس فيه من الإعنات أو التكلف شيء، أما نثره فيمتاز بالإيجاز والتركيز وقوة العبارة وقصر الجمل وعمق المعاني وقد تأثر أسلوبه بنوع الكتب التي كان يقوم بتدريسها لتلامذته في الجامع الأخضر

[1]– ابن باديس: « الشهاب »، ج 10، م 12، ص 440 – 444، عدد يناير، سنة 1938.

[2]– ابن باديس: المصدر نفسه، ج 07، م 15، ص 346، عدد أغسطس (أوت)، سنة 1939.

بقسنطينة مثل كتاب « الامالي » و« الكامل في اللغة والأدب » للمبرد وكتابي « دلائل الإعجاز – وأسرار البلاغة » للجرجاني، وديوان المتنبي، و« ديوان الحماسة » لأبي تمام وكتاب « الموطأ » للإمام مالك بن أنس ثم تأثر أسلوبه أكثر ما تأثر بالقرآن الكريم الذي كان دائم التلاوة والدراسة له، والقرآن كما نعلم هو كتاب العربية الأكبر وقمة بلاغتها وبيانها.

وإلى جانب مقدرته النثرية فهو شاعر موهوب ورغم قلة شعره إلا أنه ينظم قصائده بدم قلبه، ولذلك تجد نفسه الثائرة ينبض بها كل بيت من شعره.

ويلاحظ أن أغلب شعر ابن باديس هو عبارة عن أناشيد وطنية حماسية كان لها فعل السحر في إلهاب عواطف الجماهير وإيقاظ شعورهم وتعبئة نفسيتهم ووجدانهم للدفاع عن العروبة والإسلام والوطن والقومية وقد كان الشعب الجزائري ولا يزال حتى اليوم يردد نشيده بحماس كبير.

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماجا له رام المحال من الطلب[1]

6 – وأخيرا فإن ابن باديس يتمتع بموهبة خطابية فذة وله قدرة كبيرة على التأثير في الجماهير ولإقناعهم بوجاهة الفكرة التي يدعو إليها ويعمل من أجلها.

=[1] – من قصيدة طويلة ألقاها ابن باديس في حفل إقامته جمعية التربية والتعليم الإسلامية بقسنطينة بمناسبة المولد النبوي الشريف في شهر ربيع الأول سنة 1356 هـ وتبلغ جملة أبياتها 41 بيتا وقد أصبحت نشيدا وطنيا للجزائر قبل الاستقلال، أنظر « الشهاب »، جـ 03، م 13، ص 200 – 202، عدد نوفمبر، سنة 1937.

وقد كان يعتمد كثيرا على هذه الموهبة « الخطابة » في نشر دعوته الإصلاحية السلفية في مختلف الأوساط الجزائرية وإقناعهم بها ولا بأس هنا أن نورد وصفا محايدا لمقدرة ابن باديس الخطابية كتبته جريدة فرنسية تصدر في تونس هي جريدة « البتي ماتان » Lepetit matin في عددها الصادر بتاريخ 19 مايو سنة 1937 بمناسبة خطاب ألقاه ابن باديس في الذكرى العشرين لوفاة الأستاذ « البشير صفر » بدعوة من الجمعية الخلدونية في قصر الجمعيات الفرنسية، قالت الجريدة :« ولقد وقف للمشاركة من الجزائر في هذه الحفلة عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين... والشيخ عبد الحميد بن باديس يمثل حقا الزعيم الخطيب، فهو ملك مقاليد الكلام، وبصوته الناري يستفز الجماهير فيثير الحروب أو ينزل في القلوب سكينة السلام، وهو الرجل الذي وصل في القطر الجزائري إلى درجة التقديس وتسير وراء خطواته تسعة أعشار الأمة.

أما سُمعته فقد اخترقت البحار، وأصبح الشرق يعتبره من أكبر رجاله وكان أثناء خطابه يشير بذراعيه العاريتين إشارات هي في آن واحد إشارات الذي يبارك وإشارات الذي يقتل وتصحب إشاراته نبرات صوت عالية تخترق أحيانا طبقات الفضاء وتكتسي أحيانا أخرى هدوء العظمة والجلال وأن نبرات صوته لتنتزع منك الإعجاب انتزاعا، ثم تجتث من صدرك ما أنت مقتنع به من رأي وتجعل منك عبده وملك يمينه، فيُكَ فَيك كما يريد حسب فكره النير ثم يجعلك تحس بإحساسه، وتفكر بتفكيره، وطالما تكون مقتنعا بعكس أفكاره فإذا ما رجعت لنفسك وفكرت في الذي سمعت منه وجد أفكاره حقائق متينة لا تدفعها حجة.

3-إسهاماته وآثاره العلمية:

يقول الدكتور عمار طالبي: « وبعد: فإنني قضيت ما يزيد على ثلاث سنوات في جمع وترتيب آثار ابن باديس مما جعلني أسافر إلى بعض البلاد العربية للعثور على ما لا يوجد في الجزائر مما أتى عليه تخريب القوات الاستعمارية وإحراقها لكنوز الفكر الإنساني.

حاولت أن أصنّف هذه الآثار إلى أقسام حسب موضوعاتها وأغراضها، وإن كان هذا التصنيف غير دقيق لتداخل الموضوعات، والأغراض ومن ثم جاء تصنيفا تقريبيا.

كما أني لا أزعم أنه قد أتيح لي أن أعثر على جميع آثار ابن باديس، لأنه قد أملى إملاءات كثيرة على طلابه، وما تزال مخطوطة أو مبعثرة أو مفقودة وحتى المطبوع من آثاره لم أجمعه كله فإن أغلب أعداد جريدة المنتقد لم أعثر عليها ما عدا ثلاثة أعداد (01 – 02 – 07).

والظاهرة التي ينبغي التنبيه عليها هي أن الشيخ لا يمضي جميع ما يكتب، ولهذا فإن الباحث يضطر للاجتهاد اعتمادا على أسلوب المؤلف وروحه، وقد أتيح لي أن أطلع على جميع أعداد جريدة « السنة » و« الشريعة » و« الصراط » و« البصائر » وجميع أعداد مجلة « الشهاب » ابتداء من سنة 1929 وعلى أغلب أعداد جريدة الشهاب قبل تحويلها إلى مجلة وكان لا يكتب فيها إلا نادرا.

وفيما يتعلق بمجلة الشهاب فإني لم أترك في أغلب الظن إلا بعض ما يكتبه في السياسية والتعليق على الأحداث اليومية لصعوبة الاهتداء إلى التفريق بين مقالاته، وبين مقالات غيره، وقد تعرضت لهذا حفاظا على الأمانة العلمية، كما أني قد

تعمدت نقل بعض المقالات التي ليست لابن باديس وإنما نقلها هو واختارها للنشر وعلق عليها، فنظرا لتعليقه عليها اخترت ضمها إلى تعليقه ذلك.

وتصنيف آثاره وضعناه كما يلي:

الجزء الأول يشتمل على قسمين:

1 – تفسير القرآن. 2 – شرح الحديث.

والجزء الثاني يشتمل على خمسة عشر قسما:

1 – إصلاح وثورة ضد البدع. 2 – تربية وتعليم. 3 – سياسية. 4 – احتجاجات وبرقيات. 5 – اجتماعات. 6 – خطب. 7 – شعر. 8 – تاريخ. 9- العرب في القرآن. 10 – تراجم. 11 – القصص الديني والتاريخي. 12 – رحلات. 13 – تطور الشهاب. 14 – الصلاة على النبي. 15 – فقه وفتاوى.

وله مؤلفات أخرى :كتاب "العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية"- رجال السلف ونساؤه"- "من هدي النبوة ".

4- مسيرته مع التفسير:

رغم مشاغل الأستاذ العلامة ابن باديس التربوية الإصلاحية والسياسية, فإنه كان يخصص جزءا من وقته للقرآن الكريم أساس دعوته وحركته الإصلاحية يتدارسه للناس بالجامع الأخضر كل ليلة بعد صلاة العشاء حتى أتم تفسيره كاملا في مدة تقارب الخمس والعشرين. (1913-1940) وكان حريصا على أداء هذا الدرس ولم يتغّيب عنه إلا نادرا جدا في حالات المرض، وكان الحاضرون المتلقون لهذه الدروس شرائح مختلفة من الخاصة والعامة على اختلاف ثقافاتهم ومستوياتهم العلمية.

قال العلامة محمد البشير الإبراهيمي منوها بهذا العمل مشيدا بهذا الجهد واصفا إياه بالفخر لهذا القطر "أتم الله نعمته على القطر الجزائري بختم الأستاذ عبد الحميد بن باديس لتفسير الكتاب الكريم درسا على الطريقة السلفية، وكان إكماله إياه على هذه الطريقة في خمس وعشرين سنة متواليات مفخرة مدخرة لهذا القطر، وبشرى عامة لدعاة الإصلاح الديني في العالم الإسلامي كله، تمسح عن نفوسهم الأسى والحزن لما عاق إمام المصلحين محمد عبده عن إتمامه درسا ولما عاق حواريه الإمام محمد رشيد رضا عن إتمامه كتابه"[1].

لقد أدركت الأمة الجزائرية، قيمة هذه المفخرة، وقدرت عظمة هذه البشرى فسارعت عن بكرة أبيها زرافات ووحدانا، لتقيم احتفالات احتفاء بالمفسر واهتماما بالتفسير. ولقد حاول الإبراهيمي تصوير روعة هذا الإقبال، ولكنه اعترف بعجز التعبير عن الوصف "وليس وصف مشهد دخول الموكب إلى قسنطينة وانغماس الضيوف والمضيفين في غمرة من نشوة الفرح البالغ حد الذهول بالذي يسعه بياني إن وسعه إدراكي وعياني"[2].

ولقد كانت هذه الاحتفالات آية في التنظيم وآية في الدلالة على تعلق الأمة الجزائرية بكتاب الله عز وجل، وبالعلماء الذين يأخذون بأيديها لفهم هذا الكتاب، والعمل به، وآية كذلك على أن الكلمة الصادقة من الداعية الصادق التي تتخذ القرآن مصدرا لها، وحسن فهمه منهجا يحدث في النفوس والمجتمعات مالا تحدثه الأسلحة الفتاكة والجيوش الجرارة، وقد أدرك الشيخ البشير الإبراهيمي شيئا واحدا بقي

[1] – مقدمة مجالس التذكير، ص 15

[2] – مجالس التذكير، ص 455

يكدر ذلك الصفو الذي بلغ حد الكمال، وهو أن ذلك التفسير كان تدريسا، ولم يقيض الله تعالى من يدون تلك النفائس والدرر... فقال: "وإن كان من دواعي الغبطة ختم تفسير القرآن على هذه الطريقة في القطر الجزائري فمن دواعي الأسف أنه لم ينتدب من مستمعي هذه الدروس من يقيِّدها بالكتابة، ولو وجد من يفعل ذلك لربحت هذه الأمة ذخرا لا يقوم بمال، ولاضطلع هذا الجيل بعمل يباهي به جميع الأجيال، ولتمخض لنا ربع قرن عن تفسير يكون حجة هذا القرن على القرون الآتية"[1].

"ومن قرأ تلك النماذج القليلة المنشورة في الشهاب باسم "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير" علم أي علم ضاع وأي كنز غطى عليه الإهمال..."[2].

ولكن الألطاف الإلهية ألهمت ابن باديس رحمه الله أن ينتقي عينات من تلك النفائس يكتبها كافتتاحيات لمجلة "الشهاب" واختار لها عنوانا موحيا بالدلالات ومفعما بالرموز وهو "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير".

5- غرضه من التفسير:

كان الإمام ابن باديس يعتبر نفسه خادما للقرآن الكريم، وهو ما قصده حين قال في حفل ختم التفسير كلمة رائعة افتتح بها الخطاب: "أنتم ضيوف القرآن... وهذا اليوم يوم القرآن... وما أنا إلا خادم للقرآن"[3].

---

[1]- المصدر نفسه، ص 399، 400

[2]- نفسه.

[3]- المصدر نفسه، ص 474

ولقد كان ابن باديس شديد التأثر بالطريقة الهدائية في التفسير التي انتهجتها مدرسة المنار، فاستهدف في تفسيره أجيال مؤمنة، متخلقة بأخلاق القرآن لأنه يؤمن بأن القرآن الذي كون رجالا في السلف لا يكثر عليه أن يكون رجالا اليوم لو أحسن فهمه وتدبره فقال رحمه الله: "فإننا نربي –والحمد لله– تلاميذنا على القرآن من أول يوم ونوجه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم، وغايتنا التي ستتحقق أن يكون القرآن منهم رجالا كسلفهم، وعلى هؤلاء الرجال تعلق هذه الأمة آمالها وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها"[1].

وهذا النص يبين لنا بوضوح الأهداف السامية والغايات النبيلة التي رام ابن باديس تحقيقها من خلال درس التفسير وهي محاولة بعث المجتمع الإسلامي الذي عرف مرحلة الركود الحضاري منذ أزمنة بعيدة، عن طريق بناء الإنسان المسلم بناء قرآنيا يكسبه الفعالية الحضارية ويخرجه من مرحلة الذهول الحضاري التي يعيشها، فقال رحمه الله: "لا نجاة لنا من هذا التيه الذي نحن فيه والعذاب المنوع الذي نذوقه ونقاسيه إلا بالرجوع إلى القرآن إلى علمه وهديه وبناء العقائد والأحكام والآداب عليه"[2].

ومن يطالع تلك المقالات النفيسة في التفسير في "مجالس التذكير" يدرك صدق ما قال، ويلاحظ كيف جلى ابن باديس الهداية القرآنية في أسمى معانيها، وواضح صورها، وكيف ارتقى بدرس التفسير وخلصه من مرحلة الركود والانحطاط التي كان عليها، وكان الأستاذ يفضل تفسير كتاب الله مشافهة، إذ كان يرى في هذه الطريقة

---

[1]– المصدر نفسه، ص 476.

[2]– مجالس التذكير، ص 252

فائدة عظيمة يدل عليها قوله: "شغلنا بتأليف الرجال عن تأليف الكتب"[1]. بينما كان يرى في تدوينه بالكتابة مشغلة عن العمل المقدم، وهو حث المسلمين على التوجه مباشرة إلى كتابهم لربط مبادئه وتعاليمه بالسلوك العملي والحياة العامة وتربية الأجيال الناشئة تربية إسلامية تقوم على أسس القرآن.

6- كيفية انتقال التفسير من مرحلة المشافهة إلى مرحلة الكتابة:

إن "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير" هو عنوان ما وصلنا من دروس التفسير الشفاهي للشيخ ابن باديس والتي كان تنتقي منها ما له علاقة بأزمات المجتمع ومشاكله الآنية وينشرها كافتتاحيات لجريدة الشهاب، ولولا هذه الافتتاحيات التي جمعت في هذا المدون لضاع كل التفسير.

بعد وفاة الشيخ ابن باديس جمعت هذه الدروس وهي عينة أي (نموذج) للدروس الشفاهية في التفسير مع قليل من التفسير المنهجي مما تستدعيه طبيعة المقال المكتوب. هذا العنوان الذي اختاره الشيخ لتلك الافتتاحيات المكتوبة يوحى بالهدف الرئيسي من دروس التفسير شفاهية ثم مكتوبة، والدليل على ذلك – والله أعلم – قول ابن باديس:"ننشر في هذا الباب من مجلة الشهاب ما فيه تبصرة للعقول، او تهذيب للنفوس من تفسير القرآن الكريم..."[2].

يبدو أن ابن باديس كان باستطاعته أن يدون كل دروسه ولكنه لم يفعل ذلك إلا نادرا لأنه كان مشغولا بتعليم الجيل الجديد، وتربية الأمة الناهضة، ومكافحة الأمية

---

[1]- حسن عبد الرحمن سلوادي: عبد الحميد بن باديس مفسرا، ص 63

[2]- ابن باديس: مجالس التذكير، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، ط 1 (1402هـ، 1984م) نقلا عن الشباب، ج1، م5، رمضان 1347هـ، فيفري 1929.

المنتشرة، وفوق كل هذا كان منشغلا بمحاربة الاستعمار، فتصدى لمكافحة مرضين كانا ينهشان جسم المجتمع الجزائري: الجهل وفساد الدين والاستعمار، هذا ما يؤكده الشيخ: "شغلنا بتأليف الرجال عن تأليف الكتب"[1]، لأنه حين فسّر كتاب الله مشافهة كان يرى أن تدوينه بالكتابة فيه مشغلة عن العمل المقدم، وهو حث المسلمين على التوجيه مباشرة إلى كتابهم المقدس لربط مبادئه وتعاليمه بالسلوك العلمي، والحياة العامة، وتربية الأجيال الناشئة تربية إسلامية تقوم على أسس القرآن.

بعد وفاة الشيخ قام المرحوم أحمد بوشمال مدير المطبعة الإسلامية بقسنطينة بنشر هذه الدروس ثم أعاد نشرها وأضاف إليها إضافات هامة وعلق عليها الأستاذان أحمد الصالح رمضان وتوفيق محمد شاهين سنة 1964 ثم قامت وزارة الشؤون الدينية بطبعه طبعة جديدة أخرى سنة 1982، ثم خرجت إلى الوجود طبعة جديدة وهي مبادرة حميدة من الدكتور عمار طالبي تميزت باحتواء تراث الشيخ ويتضمن الجزء الأول منها التفسير، وصدرت الطبعة الأولى، من هذا الكتاب سنة 1962، أما الطبعة الثانية فكانت سنة 1983 وبين سنة الطبع الأولى والثانية صدرت طبعة أخرى لتفسير الشيخ ابن باديس بعنوان "تفسير ابن باديس من مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير" طبعته دار الفكر تميزت بمقدمة للأستاذ الدكتور محمد البهي وزير الأوقاف وشؤون الأزهر السابق[2]. وفي سنة 2009 صدرت طبعة أخرى لهذا التراث التفسيري اعتنى به وخرج أحاديثه وآثاره الأستاذ أبو عبد الرحمان المحمود

[1]- حسن عبد الرحمن سلوادي، المصدر السابق، ص 63.

[2]- حسن عبد الرحمان سلوادي، عبد الحميد بن باديس مفسرا، ص 84.

بعنوان:«تفسير ابن باديس أو مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير» وطبع بدار الرشيد للكتاب والقرآن الكريم بالجزائر.

7- منهجه في التفسير:

كرس ابن باديس ربع قرن من حياته لتفسير كتاب الله، وكان هذا التفسير وسيلة لإصلاح المجتمع وانطلاقة لنهوض الأمة الجزائرية، إيمانا منه بأنه لا فلاح للمسلمين إلا بالرجوع إلى هدي القرآن والاستقامة على طريقته "وأسلوبه في ذلك سلفي النزعة والمادة عصري الأسلوب والمرمى"[1]، "معتمدا في منهجه على تفسير القرآن بالقرآن، وعلى بيان السنة النبوية ثم على أصول البيان العربي يمده إلى جانب ذلك ذوقه الخاص في فهم القرآن كأنه حاسة زائدة، يردفه بعد الذكاء المشرق والقريحة الوقادة والبصيرة النافذة، بيان ناصع، واطلاع واسع، ودرع فسيح في العلوم النفسية، والكونية، وباع مديد في علم الاجتماع، ورأي سديد في عوارضه وأمراضه، يمد ذلك كله شجاعة في الرأي، وشجاعة في القول لم يرزقهما إلا الأفذاذ المعدودون في البشر".[2]

وللدكتور عمار طالبي رأي يؤكد ما قررته سابقا لقد ارتبط التفسير الشفاهي عموما ارتباطا وثيقا بحركة الإصلاح وسيلة عند غير ابن باديس من المفسرين المصلحين قبله في إصلاح الأفراد والمجتمعات، فيقول: "إن شخصية الأستاذ عبد الحميد بن باديس غنية ومعبرة عن أزمة المجتمع الإسلامي لا تماثلها إلا شخصية جمال

[1]- البشير الإبراهيمي: مقدمة مجالس التذكير، ص 32.

[2]- نفسه.

الدين الأفغاني في ثرائها وشمولها، وجرأتها، وتعبيرها عن جوانب المشكلات الاجتماعية والأخلاقية، والدينية، والعلمية، والسياسية التي يتخبط فيها العالم الإسلامي".[1]

إن معالم هذه الشخصية تعكس لا محالة منهجه في التفسير، والمعتمد لدينا هو المكتوب لأن الشفاهي ضاع للأسف إذ لم يحظ بالتسجيل الصوتي أو التدوين عنه مباشرة، إلا أن هذا المكتوب هو أسلوب الشيخ بعد انتقائه لبعض الدروس الشفاهية لتكون افتتاحيات لجريدة الشهاب، غير أن انتقالها إلى المكتوب لم يلغ عنها خاصية الواقعية وإحكام الصلة بين النص وأزمات العصر.

أما منهجه فنلخصه في هذه النقاط:

– البدء بالتفسير التقليدي الظاهري (وأعني به ذكر المناسبة، وسبب النزول، وشرح المفردات والتراكيب والمعنى العام للآية أو مجموع الآيات موضوع الدرس).

– الانتقال إلى إزالة الفجوة بين المسلمين والمهمة العلمية الحركية للقرآن.

– تربية المسلم تربية قرآنية إسلامية بتوظيف النص الفاعل في العقل السائد.

– الاستعانة كثيرا بالقرآن نفسه وهو تفسير القرآن بالقرآن مما يؤكد التزامه بالوحدة الموضوعية.

– تجاوزه عصر الخلاف المذهبي والكلامي واللغوي بتبنيه عدم الخوض في هذه الخلافات.

– مراعاة مقتضى الحال.

[1]– عمار طالبي: آثار الشيخ عبد الحميد بن باديس، ج1، ص207

– تقسيم النص تقسيما نموذجيا يشبه إلى حد ما الدرس الأكاديمي فاصلا بين الأفكار التي يريد طرحها بعناوين فرعية مختصرة وحكيمة تؤكد مغزاه ومقصده من هذا التفسير.

– عدم تقيده بأقوال المفسرين السابقين في كثير مما ذهبوا إليه.

– ظهور النزعة الاستقلالية عنده.

– عدم الخوض في الإسرائيليات.

– الاعتماد على التفسير بالمأثور إلى جانب التفسير بالمعقول.

– شرح الآيات بأسلوب سهل يبين هداية القرآن وحكمة تشريعه في معالجة أمراض المجتمع وهو أساس منهجه في التفسير.

أما عن خطوات هذا الدرس فتتلخص في النقاط التالية:

– تمهيد يضع القارئ في جو النص القرآني المراد تفسيره.

– شرح لغوي للمفردات الأساسية.

– تحليل مركز للعبارات والتراكيب لإبراز خصائص الأسلوب العربي.

– إيضاح المعنى العام للنص.

– استخراج ما في النص القرآني من حقائق وقيم مختلفة متنوعة "كونية، اجتماعية وأخلاقية ونفسية وسياسية، واقتصادية وتاريخية وتشريعية مركزا في ذلك كله على البيئة الجزائرية خاصة وعلى الأمة الإسلامية عامة.

والملاحظة الغالبة كذلك على سجل الدروس تقريبا ختمها بالدعاء المأثور، وهو ما يؤكد شفاهية التفسير أصلا.

رأي ابن باديس في الإصلاح الديني والاجتماعي:

الفرد هو أساس المجتمع يتكون من الأفراد ولا يمكن إصلاح مظاهر الاعوجاج والفساد التي تظهر في المجتمع إلا إذا ارتكز هذا الإصلاح أساسا على الأفراد الذين يتكون منهم ذلك المجتمع.

وقد عنى الإسلام عناية كبيرة بتهذيب الفرد المسلم وتقويم خلقه واستقامة سلوكه حتى يتكون المجتمع الإسلامي من أفراد صالحين مستقيمين في أخلاقهم وسلوكهم الاجتماعي العام وقد سلك الإسلام للعناية بالفرد المسلم طريقتين:

1- إصلاح عقائده من الشرك.

2- إصلاح أخلاقه من الفساد والمساوئ الأخلاقية الأخرى.

فالعقائد والأخلاق هما أساس الأعمال والمجتمع كما يقول ابن باديس ولذلك وجه الإسلام إليهما عناية كبيرة.

ومنهج ابن باديس في الإصلاح الديني والأخلاقي والاجتماعي لا يخرج عن هذا النطاق ففي رأيه أن العقائد السليمة هي قاعدة الإصلاح في المجتمع وينادي بأن حالة التدهور العام التي وصل إليها المسلمون في القرون الأخيرة إنما تعود إلى تدهور العقيدة لدى الفرد المسلم وتطرق الشرك الخفي إليها ولذلك ليس هناك علاج لهذه الحالة إلا بإصلاح العقيدة الدينية من سائر مظاهر الشرك الخفي الذي تسرب إليها، عن طريق الجهل بالإسلام ثم عن طريق رجال الطرق الصوفية الذين أكثروا من البدع في الدين ونشروا نوعا من الشرك بالله بين المسلمين عندما ادعوا لأنفسهم صفات الربوبية بين عامة المسلمين مما أدى بالضرورة إلى انحطاط الفرد المسلم، أخلاقيا وفكريا وروحيا، وبالتالي انحطاط

المجتمع الإسلامي إلى درجة مذهلة مما يستوجب العمل بكافة الوسائل على إنقاذه بكل سرعة. هذا ما سأحاول الوقوف عليه من خلال هذين المحورين:

المحور الثاني:التركيز على أهم مسائل العقيدة

اقتران الإيمان بالله بالإيمان باليوم الآخر منهج إلهي نبوي، ورد كثيرا في القرآن والسنة مما يؤكد أهمية هاتين المسألتين إضافة إلى مسألة الإيمان بالله والرسل وعليه فقد كان تركيز المفسر المصلح على هاته المسائل الثلاثة واضحا في دروس تفسيره التي كان يلقيها مشافهة على المتلقين ومن ثم قمت بتقسيم هذا المحور إلى ثلاث نقاط: أولا: العبودية الخالصة لله تعالى، ثانيا: الإيمان باليوم الآخر، ثالثا: الإيمان بالنبوات.

أولا: العبودية الخالصة لله تعالى

تعد هذه المسألة أولى الخطوات وأهمها في نهج الإسلام على طريق إصلاح العقيدة والتوحيد الخالص السالم من الشرك في أي صورة من صوره، وهي العبودية الخالصة لله التي يرجى بها الفوز بالجنة والنجاة من النار، وهي القاعدة الكبرى التي تقوم عليها الحياة.

نظرا لأهمية هذا الأصل في حياة المسلم، فقد ركز المفسر المصلح على توضيحه وبيانه وتكرار التذكير به كلما لمس في الآية علاقة بظاهرة من الظواهر المنحرفة المتعلقة بهذه المسألة محكما الصلة بينها وبين الواقع.

قد يقول قائل إن هذا المفسر يخاطب المسلمين فكيف يدعوهم إلى العبودية الخالصة لله تعالى؟ نقول: أن الناس وخاصة العوام منهم ونظرا لانتشار الجهل والعادات والبدع فقد شاب توحيدهم وعبادتهم لون من ألوان الشرك لا يعلمون أنه يُعكر صفاء هذه العبودية، وكان المفسر بحكم موقعه ومكانته كفرد من أفراد المجتمع

يرى بعضا من هذه الصور المنحرفة فيُنَبِّه إليها وإلى خطرها على أخلاق المسلم بل وعلى حياته كلها.

فهذا المفسر المصلح لم ينطلق في اهتمامه بهذه المسألة بالذات على اختلاف الفترات الزمنية من فراغ، بل انطلق من إيمانه وقناعته بما لها المسألة من آثار تربوية ومعنوية في حياة الإنسان.

"فالعبودية الخالصة تنظم حياة الإنسان النفسية، وتوحد نوازعه وتفكيره وأهدافه، وتجعل كل عواطفه، وسلوكه، وعاداته، قوى متضافرة، متعاونة ترمي كلها إلى تحقيق هدف واحد هو الخضوع لله وحده، والشعور بألوهيته وحاكميته ورحمته وعلمه لما في النفوس، وقدرته، وسائر صفاته. وكل صفة أساسية في الألوهية، يقابلها في النفس الإنسانية جانب من جوانب الحياة النفسية، فلا سعادة للنفس ولا استقامة ولا انضباط إلا إذا ارتبط كل جانب من جوانبها بما يناسبه من معاني الألوهية"[1].

هذا وقد حدد الدكتور عبد الرحمن النخلاوي أثر العبودية الخالصة لله تعالى في هذه النقاط:[2]

1- تحقيق وحدة النفس الإنسانية: قال تعالى: ﴿**ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون، ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون**﴾ "الزمر/29"، فشبه الله النفس الموحدة لربها، بالعبد الذي يملكه رجل واحد، فجميع تصرفات هذا العبد تأتي حسب رغبة سيده، وبهذا تهدأ نفسه، وتستقيم حياته، وتنسجم تصرفاته وفق نظام معين وعلى نسق واحد. أما العبد الذي

[1]- عبد الرحمان النخلاوي، أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ص 80.

[2]- المصدر نفسه، ص 82 (بتصرف سير جدا).

يملكه عدة شركاء متشاكسين، فلا يؤمن أن يتصرف اليوم على نمط يعاكس تصرفاته بالأمس، وتبقى نفسه نهبا للمخاوف والهواجس.

2- تربي عقيدة التوحيد، عقل الإنسان على سعة النظر وحب الإطلاع على أسرار الكون، والطموح إلى معرفة ما وراء الحس، فكل ما في الكون مما نرى وما لا نرى من السموات والكرسي والعرش والملائكة، كل ذلك من ملك الله، وكل كائن صغير أو كبير يسبح بحمد الله ويشهد بعظمته. وقد أمرنا القرآن أن نتأمل ذلك كله...، ويبين لنا أنه ما من شيء إلا يعلمه الله، من أصغر ذرة إلى أكبر جرم، ﴿**وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو**﴾ "الأنعام/59".

3- كما تربي عقيدة العبودية الخالصة لله عند الإنسان التواضع وعدم التطرف أو الغرور بأي صفة من صفاته الإنسانية، فإذا اغتر بقوته وأراد البطش أو الظلم ذكر قدرة الله عليه، وأنه هو الذي يحيي ويميت، وإذا اغتر بماله وأسرف واستهتر وبطر وتكبر ذكر أن الله هو الغني وهو الذي وهبه المال فعاد إلى السخاء والنبل والتضحية والتودد إلى عباد الله، وكذا إذا اغتر بعلمه فظن أنه بلغ الكمال، نظر إلى الكون الكبير الذي هو جزء صغير من علم الله، فانقلب بصره خاسئا وهو حسير وعاد إلى نفسه صاغرا متواضعا يطلب المزيد من المعرفة، بروية وصبر وأناة، وتدبر وتفكر ودأب واستمرار، وقس على هذا كل ما وهب الله الإنسان.

4- وبالتوحيد الخالص وإفراد الله بكل صفات الألوهية يبتعد الإنسان عن التعلل بالآمال الكاذبة، فلا تنفع عند الله شفاعة الشافعين، إلا لمن يأذن الله ويرضى، وما من أحد يفيده قربة من الله، إلا عن طريق العمل الصالح، فليس لله قرابة رحم،

ولا صلة أبوة، ولا صحبة سابقة لأحد من العالمين، الكل عباد الله والكل محاسبون، مجزيون بأعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فَشَرٌّ.

5- كما يتسلح المؤمن المخلص العبودية لله تعالى بالطمأنينة، والرجاء مع السعي وعدم التواكل.

6- الانتماء إلى الله والاعتزاز به، وموالاته والانضواء تحت لوائه، فالمؤمنون هم حزب الله وهو وليهم، والكافرون لا مولى لهم...﴿**ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون**﴾ "المائدة 56"... وهذا الولاء يربي النفس دائما على أن تكون في حرب مع الشيطان وأتباع الشيطان، أولئك الذين يزينون للناس معصية الله ونسيانه وإتباع الشهوات.

هذه آثار إخلاص العبودية لله وحده وهي أساس حياة المسلم أخلاقا وسلوكا، ومن هنا رأينا التفسير الشفاهي يركز على هذه القضية نظريا وعمليا، وهذا ما استنبطته من خلال بعض النماذج التطبيقية في تفسيره لأقف على كيفية استغلال المفسر للنص القرآني المؤثِّر في إصلاح حال المجتمع الآني على اختلاف الفترات والمراحل الزمانية والبيئات والعلل لأخلص في الأخير إلى نتيجة مفادها: (لما كان كتاب الله هو الدستور الذي شرعه الله تعالى للأمة الإسلامية وجعل فيه خيرها وسعادتها في الدنيا والآخرة، فلِمَ لا يكون هو نفسه مصلح حال الأمة عقديا وأخلاقيا واجتماعيا في كل زمان ومكان).

فهذا ابن باديس الذي فسر كتاب الله درسا في الجزائر في بيئة مريضة كان ينهشها مرضان: الجهل وفساد الدين والاستعمار، نراه يركز كثيرا على مسألة إخلاص العبودية لله تعالى لأنه كان يراها مبدأ الإصلاح فهو لم يدعُ مباشرة إلى الثورة على

الاستعمار بل أراد أن يهيئ الثوار عقديا وأخلاقيا ثم يدعوهم بعد ذلك إلى الثورة على هذا المستعمر الدخيل.

وابن باديس رجل عملي غير أن هذا لم يمنع أن تتخلل أعماله بعض الإشارات النظرية فعلى المستوى النظري لمسألة العقيدة يقول:

1. "بسط القرآن عقائد الإيمان كلها بأدلتها العقلية القريبة القاطعة فهجرناها وقلنا تلك أدلة سمعية لا تحصل اليقين فأخذنا في الطرائق الكلامية المعقدة وإشكالاتها المتعددة واصطلاحاتها المحدثة مما يصعب أمره على الطلبة فضلا عن العامة[1]".

2. كما اعتنى الشيخ عناية كبيرة بتصحيح العقائد ومحاربة مظاهر الشرك بمختلف ألوانه مما أحدثه المبتدعة وأتباع الطرق الصوفية من المعتقدات الفاسدة والتصرفات المنحرفة المبنية على الجهل والخرافات وكان يرى أن السبب في هذه الضلالات هو الجهل بالدين وعدم بناء الأمور على العلم الصحيح عندما فسر قول الله تعالى: ﴿**ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا**﴾ "الإسراء/36".

3. وقال أيضا:"ولنبدأ من الإيمان بتطهير عقائدنا من الشرك وأخلاقنا من الفساد وأعمالنا من المخالفات.

هذا وقد أثار الشيخ ابن باديس مسألة العبودية الخالصة لله تعالى في مواضع شتى من تفسيره منها ما ارتبط مباشرة بظاهرة واقعية في المجتمع، ومنها ما كان عاما

[1] – مجالس التذكير، ص250.

بعناوين فرعية مختلفة[1] غير أني سأحاول الوقوف على طرحه لهذه المسألة من خلال نموذجين تطبيقين على سبيل التمثيل لا الحصر.

نموذج تطبيقي:

تفسير قوله تعالى: ﴿**لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا**﴾ "الإسراء/22" وقوله تعالى: ﴿**لا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا**﴾ "الإسراء/39".

قال المفسر تحت عنوان فرعي التوحيد: ﴿**لا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا**﴾، هذا هو أساس الدين كله، وهو الأصل الذي لا تكون النجاة ولا تتقبل الأعمال إلا به وقد كانت أفضل كلمة قالها الأنبياء عليهم السلام هي كلمة "لا إله إلا الله" وهي كلمته الصريحة فيه، ولا تكاد سورة من سور القرآن تخلو من ذكره والأمر به والنهي عن ضده،...فنهى الله الخلق كلهم عن أن يعتقدوا معه شريكا في ألوهيته فيعبدوه معه، ليعتقدوا أنه الإله وحده فيعبدوه وحده، وبيَّن لهم أنهم إن اعتقدوا معه شريكا وعبدوه معه فإن عبادتهم تكون باطلة وعملهم يكون مردودا عليهم وأنهم يكونون مذمومين من خالقهم[2]" ثم ينتقل إلى بيان حقيقة العبودية الخالصة لله تعالى، قائلا: "...فالعبادة بجميع أنواعها لا تكون إلا له فَذُلُّ القلب وخضوعه والشعور بالضعف والافتقار والطاعة والانقياد والتضرع والسؤال هذه كلها لا تكون إلا لله، فمن خضع قلبه لمخلوق على أنه يملك ضره أو نفعه فقد عبده،

[1] – أنظر:المصدر نفسه، (بيان وتوجيه، ص392.) (عقائد وأدلتها) ص 368، (إرشاد وتحذير) ص326، (تحذير وإرشاد) ص300، (عقيدة) ص239، (استنتاج)، ص158، (تطبيق) ص158.

[2] – ابن باديس، مجالس التذكير، ص95.

ومن شعر بضعفه وافتقاره أمام مخلوق على انه يملك إعطاءه أو منعه فقد عبده، ومن ألقى قياده بيد مخلوق يتبعه فيما يأمره وينهاه غير ملتفت إلى أنه من عنده أو من عند الله فقد عبده، ومن توجه لمخلوق فدعاه ليكشف عنه السوء أو يدفع عنه الضر فقد عبده، فالله تعالى يعلِّم الخلق كلهم في هذه الآية بأنه أمر أمرا عاما وحكم حكما جازما بأن العبادة لا تكون إلا له...فلا يستحق العبادة بأنواعها سواه"[1].

فالمفسر في هذا المقام ركز على أن العبودية الحقيقية هي الخالصة لله تعالى وحده دون سواه، ثم عدَّد صورا عقدية منحرفة واقعية في المجتمع، لينبِّه المتلقين إلى خطورتها سواء أكان عملهم هذا عن علم أو عن جهل. ولم يتخذ مرجعيته في هذا الدرس من الأثر فقط، ولم يكتف بتذكير الجمهور المستمع بأن العبودية الحقيقية يجب أن تكون لله وحده انطلاقا من مفهوم النص المفسر، بل اتخذ هذه المرجعية من الواقع الذي كان يحياه في مجتمعه، مما دفعه إلى وضع هذا النص في سياقه الزماني الذي فُسِّر فيه.

فالدرس ألقى في قسنطينة سنة 1930[2]، وفي هذه الفترة كانت المنطقة صراعا عنيفا بين العقلية السائدة التي تغذيها الحركة اليهودية من جهة والاستعمار الفرنسي من جهة ثانية، فاغتنم المفسر الفرصة واستغل المقام ليوجه النص القرآني إلى هذا الخلل في العقيدة والعبودية لله تعالى، إذ عدَّد صور الانحراف العقدي السائد آنذاك الذي لا يدل إلا على سذاجة في التفكير، وخضوع للبدع والخرافات التي غذتها الطرقية وأتباعها، كالانقياد الأعمى لشيخ الطريقة واعتقاد النفع والضر من البشر.

---

[1] – المصدر نفسه، ص96-97 (بتصرف يسير).

[2] –المصدر نفسه، ص99.

بعد استقراء هذا النموذج لاحظت أن المفسر لم يكتف عند تفسيره لآيات العقيدة المتعلقة بالعبودية الخالصة لله تعالى بمجرد تفسير تقليدي معروف بل وجه النص إلى التذكير والوقوف على بعض صور العبودية لغير الله مبينا أن سبب انتشاره مَرَدُهُ الجهل الذي غَذَّى جذوره الاستعمار باستبداده وسيطرته على الأفراد والمجتمعات؛ لأن هذا الوضع العقدي المزري يخدم مصالحه. ولهذا حرص كل الحرص على تغذية هذه الأوضاع حتى يبقى الناس تحت الهيمنة الاستعمارية دون التفكير في الثورة عليه.

كما لاحظت أن المفسر لم يبرح تفسيره حتى نبه إلى خطورة هذه الصور العقدية المنحرفة على حياة الفرد والمجتمع.

ثانيا: الإيمان باليوم الآخر

ونظر لاقتران مسألة الإيمان بالله وإخلاص العبودية له بالإيمان باليوم الآخر في العديد من الآيات القرآنيةفقد لاحظت أيضا اهتمام المفسر المصلح بهذه المسألة العقدية على نفس وتيرة اهتمامه بالعبودية وربما كان السبب في تركيزه عليها ما تشتمل عليه من آليات التأثير لما تحمله عليه الآيات القرآنية المفسِّرة من أساليب الترغيب والترهيب. وفي هذا المقام نستأنس برأي الدكتور عبد الرحمن النحلاوي حين حدد النتائج التربوية للإيمان باليوم الآخر في النقاط التالية[1]:

1- تربية الشعور الحقيقي بالمسؤولية: يلاحظ من وجهة النظر التربوية أن الإيمان باليوم الآخر، هو الوازع والدافع الحقيقي الذي يكمن وراء الشعور بالمسؤولية الجدِّية الحقة، وأن لا شعور بالمسؤولية حقا بدون هذا الإيمان، ولذلك لاحظنا أن ميزة

[1]- أصول التربية الإسلامية وأساليبها، ص 98-101.

التشريع الإسلامي تكمن في تقبل الناس له، بطواعيته، ودون حاجة في كثير من الأحيان إلى استعمال السياط وأقسى العقوبات، ودون أي تهرب أو احتيال على هذا القانون الإلهي، مادام الملائكة الحفظة يكتبون، ومادام يوم الحساب والجزاء ينتظرنا بالمرصاد، فكل من رُبي تربية إسلامية يشعر بتمام المسؤولية عن كل أعماله، خوفا من الوقوف للحساب بين يدي الخالق في يوم تشخص فيه الأبصار.

2- تحقيق الأخلاق الفاضلة المطلقة، في سلوكنا وحياتنا تحقيقا فعليا مستمرا، ثابتا غير متقلب، بلا نفاق ولا رياء، لا يكون إلا نتيجة الإيمان باليوم الآخر، فالحلم والأناة، والتضحية، والصبر على الشدائد، والسمو بالنفس عند الدناءات، كل ذلك يتحلى به المؤمن لأنه ينتظر جزاءه عند الله، لا عند المجتمع ولا عند الناس، ويوم الجزاءات لا ريب فيه، في موعده الذي قدره الله له، لا يتزحزح، لذلك فإن أخلاق المؤمن ثابتة لا يزعزعها شيء من أعراض الحياة الزائلة.

3- وكذلك انضباط جميع الدوافع والغرائز، والتحكم في هذه القوى الغريزية الجامحة، إنما يتم خوفا من الله، وطمعا في جنته، علما أن الإسلام وَضَع لكل دافع غريزي، من الترغيب والترهيب، ومن التسامي به، ما يخضعه لشريعة الله فيجعله طاقات مثمرة في حياة الفرد والمجتمع، بدلا من أن يعاكس الإنسان هذه الدوافع فتنقلب إلى طاقات مبددة عندما يصطدم بالكبت والإحباط، فتوجيه الدوافع في الإسلام خير ألف مرة من كبتها أو تناسيها، كما في العقائد الأخرى التي تبالغ في الزهد، والتي لا تراعي الفطرة الإنسانية.

4- إيثار الآخر على الدنيا والصبر على الشدائد، على أن مغريات الحياة الدنيا، وما يقابلها من المصائب والشدائد التي تصيب الأفاضل المثاليين، يكيدها لهم

أتباع الشياطين، لا علاج لها إلا ما يربيه القرآن في نفوسنا من إيثار الآخرة على الدنيا.

5- تربية العقل على الفطرة السليمة: وذلك أن كل إنسان يفكر في هذا الكون بدون تحيز إلى أهوائه يصل إلى النتائج التالية:

أ- أن كل ما في الكون من حياة وموت، وفناء أو ضعف تدريجي للطاقات وتغير، وأُفُول وشروق، يدل على أنه صائر إلى الزوال، ومسير بغير إرادته.

ب- وأن هذا الإنسان الذي يقضي عمره في كدح وجد، وخصومة ونزال مع المجتمع، وهو يتمتع بالعقل والتمييز بين الخير والشر، إذا به يموت ويفقد كل حركة أو حياة، ومن الناس ظالم ومحسن وصالح وطالح، فهل يستوي ذلك كله؟ وهل تكون كل أعمال الناس إلى فناء، من غير تمييز بين المحسن والمسيء؟.

إن العقل الصحيح والفطرة السليمة لا تستسيغان ذلك، ولا تستسيغان أن يكون هذا الكون المنظم البديع مصيره إلى الفناء بغير هدف ولا غاية.

ج- الكون الذي يدل على خالق مبدع حكيم، يدل على أن وراء وجوده غاية، من أجلها أوجده الله، وهذه النتيجة يتوصل إليها العقل السليم بفطرته.

د- وبالقياس المنطقي على خلق الله لهذا الكون وللإنسان، يستلزم العقل الصحيح الخالي عن التحيز للهوى، أن الذي خلق الكون أول مرة قادر على إعادته خلقا جديدا، وكذلك الذي خلق الإنسان.

هذه السلسلة من التفكير كل منها مرتبطة بسابقاتها، وهي التي بنى عليها القرآن أدلته على وجود الله، ثم على اليوم الآخر والبعث والنشور. فهذه الآثار تفسر لنا تركيز المفسر وهو يفسر الآيات المتضمنة للإيمان باليوم الآخر على هذه المسألة

موجها إياها توجيها إصلاحيا للترغيب فيما أمر به رغبة في الوعد، وللترهيب عما نهى عنه خوفا من الوعيد.

وعليه فسأقوم باستقراء بعض النماذج التطبيقية للوقوف على هذه المسألة بدقة أكثر.

1-النموذج التطبيقي[1]: تفسير قول تعالى: ﴿**ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا**﴾ "الإسراء/19". لم يكتف الشيخ عبد الحميد بن باديس بمجرد التفسير اللغوي لهذه الآية بل وسع نطاق مفهومها إلى بيان الشروط الثلاثة الواجب توافرها في عمل المسلم ليكون سعيه مشكورا فقال: "هذا قسم آخر من الخلق، قصد بعمله الآخرة وإياها طلب، وثوابها انتظر يرجو أن يزحزح من النار، ويفوز بالجنة ويحل عليه الرضوان، فهذا كان سعيه مشكورا بثلاثة شروط:

الشرط الأول: أن يقصد بعمله ثواب الآخرة قصدا مخلصا، كما يفيده فعل الإرادة في "ومن أراد الآخرة" ولام الأجل في قوله تعالى: "**وسعى لها**".

الشرط الثاني: أن يعمل لها المعروف في الشرع اللائق بها، الذي لا عمل يفضي إلى نيل ثوابها سواه، وهو طاعة الله تعالى وتقواه بامتثال أوامره ونواهيه والوقوف عند حدوده.

الشرط الثالث: أن يكون مؤمنا موقنا بثواب الله تعالى وعظيم جزائه، فإذا توفرت هذه الشروط الثلاثة لهم "كان سعيهم مشكورا" متقبلا مثابا عليه بحسن الثناء

[1]- مجالس التذكير، ص83.

وجميل الجزاء على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ""والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم".

وإذا اختل واحد منها فليس العمل بمتقبل ولا بمثاب عليه بضرورة انعدام الشروط بانعدام شرطه[1]، فكلام المفسر يؤيد ما ذهبنا إليه سابقا من أهمية اقتران الإيمان بالله بالإيمان باليوم الآخر في الكثير من الآيات القرآنية؛ لأن هذان الأمران متلازمان وهما أساس استقامة الفرد وصلاح المجتمع، إذ اعتبر إخلاص القصد في العمل ثواب الآخرة مقترنا بطاعة الله وتقواه بامتثال أوامره ونواهيه والوقوف عند حدوده. مما يجعل المسلم يتحرى طبيعة قوله وعمله قبل الإقدام عليه، ولا يخفى على أحد ما لعامل الترغيب والترهيب من أثر نفسي على الإنسان في حضه وحثه على الامتثال للأوامر والانتهاء عن النواهي.

فالشيخ في هذا المقام يقرِّر قاعدة نظرية عامة بينما نراه في موضع آخر من تفسيره يصوغ مسألة الإيمان باليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب صياغة أخرى ويوجِّه النص توجيها واقعيا يبرز لنا من خلاله خاصيتي الترغيب والترهيب دون الوقوف عند التفسير التقليدي فقط في النموذج التالي:

2-النموذج التطبيقي: تفسير قول الله تعالى: ﴿**وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا**﴾ "الإسراء/35" تحت عنوان فرعي: "الترغيب في الوفاء والترهيب من الخيانة" قال ابن باديس: "... إذا كان مسؤول بمعنى مطلوب، أي مطلوب الوفاء به، فإنه مطلوب في الفطرة وهي الشريعة. فالعباد فطروا على استحسان الوفاء ومطالبة بعضهم بعضا به، والشرع طالبهم بالوفاء وشرعه لهم ووعدهم الثواب عليه. ففي قوله:

[1]- مجالس التذكير، ص 83.

"إن العهد كان مسؤولا" ترغيب لهم في الوفاء بحسنه ومشروعيته وحسن الجزاء عليه، ويتضمن هذا الترغيب بالتخويف من ترك الترغيب بالتخويف من ترك المطلوب، وإذا كان مسؤول بمعنى "مسؤول عنه" فإن المعنى أن الله تعالى يسأل العباد يوم القيامة عن عهودهم هل أوفوا بها ليجازيهم على الوفاء بحسن الجزاء، وعلى الخيانة بالعذاب والإهانة، فينصب لكل غادر لواء يوم القيامة ويقال هذه غدرة فلان كما جاء في الصحيح. ففي الآية على هذا –أيضا– ترغيب وترهيب"[1]. فالمفسر نبه على إبراز الوعد والوعيد الآجلين في اليوم الآخر ليرغب في الوفاء بالعهد، ويرهب من خيانة هذا العهد. فكلامه عن يوم الآخر أخذ طابع إبراز العاقبة والجزاء في هذا اليوم. ولم يعالج المسألة بطريقة عقدية كلامية بل لجأ إلى تبسيط المفاهيم وهي إحدى خصائص التفسير الشفاهي أيضا، ليعالج مشكلة اجتماعية تتمثل في خيانة العهود وعدم الوفاء بها، فكان كلامه عن اليوم الآخر منصبًّا على بيان ما يكون فيه من الثواب والعقاب، على عكس ما ذهب إليه في النموذج الأول، لأن المقام هنا استدعى التركيز على هذه الخاصية، بينما في النموذج الأول كان تركيزه على بيان حقيقة الإيمان بالله واليوم الآخر. مما يؤكد مراعاة مقتضى الحال في هذا اللون من التفسير.

بعد استقراء تفسير هذه النصوص نستنتج أن المفسر أكد على معادلة هامة عدّها سبب الفوز بالجنة هي أن الإيمان بالله واليوم الآخر هما الحافز إلى العمل والدافع إليه وهو بصدد الكلام عن قبول الأعمال وعدم قبولها من الله تعالى مما يؤكد أهمية وخطورة هذه المعادلة في نفس الوقت، يؤكد على أن الإيمان بالله وبلقائه له أثر سلوكي وأخلاقي وعملي على نفس المسلم.

---

[1]– المصدر نفسه، ص 133-134.

هذا ما يدفعنا إلى القول أن المفسر المصلح ركز على مسألة الإيمان بالله وباليوم الآخر ليس من زاوية نظرية بحتة بقدر ما كان تركيزه عليها من أجل إبراز خاصية الترغيب والترهيب، للتأكيد على أنها اللبنة الأولى في بناء الشخصية المسلمة السوية المستقيمة وهو بذلك ينهج نفس المنهج القرآني في إصلاح الفرد والمجتمع، والدليل على ذلك اقتران الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر في ستة وعشرين موضعا من القرآن الكريم[1].

ثالثا: الإيمان بالنبوات

بالإضافة إلى اهتمام التفسير الشفاهي بأصل العقيدة الأول وهو الإخلاص للعبودية لله تعالى، والإيمان باليوم الآخر، فقد لاحظت أن تركيزه على مسألة عقدية أخرى أراها أيضا هامة بحكم الهدف من هذا التفسير، هي مسألة النبوة.

حيث كان اهتمام التفسير الشفاهي بها، وتركيز المفسرين المصلحين عليها ذو علاقة وطيدة بالهدف من دروس التفسير، ولهذا آثروا تفسير القرآن درسا لا كتابة وهي الإصلاح ذلك أن الغاية الأولى من إرسال الرسل وتنزيل الكتب السماوية معهم هي الإصلاح،لأن "الهدف الأساسي من كل رسالة إلهية بعث الله بها إلى الناس، وهذه الرسالة تتلخص أولا وأخيرا في إصلاح أحوال الناس إصلاحا شاملا، تصلح معهم عقيدتهم وتصلح معه شريعتهم، ويصلح معه سلوكهم ويصلح معه مجتمعهم،

[1] – أنظر محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر، بيروت، د.ط (1407هـ – 1987) مادة (آخر)، ص 21.

وتصلح معهم معايشهم، وتصلح معه علاقاتهم، وهكذا يتسرب الإصلاح إلى كل زاوية من زوايا حياتهم الظاهرة والباطنة، ويصبح مجتمعهم مجتمعا فاضلا وصالحا"[1].

فهذا الترتيب في الصلاح يؤكد ما قررته سابقا مهمة الرسالات الإلهية والمكلف بتنفيذها وتحقيق أهدافها هم الرسل والأنبياء، ومن ثم كانوا روادا للإصلاح الذي أمرهم به الله وأعانهم على تحقيقه في مجتمعات بلغ فيها الفساد درجة كبيرة، استدعت إرسال هؤلاء الأنبياء والرسل حتى يقوّموا انحرافها، ويصلحوا فسادها هذا ما حاول المفسرون المصلحون الوقوف عنده كلما ورد ذكر الأنبياء وقصصهم ليجعلوا من هاته الشخصيات المعصومة، وإن كانت نماذج طاهرة قدوة في الحياة الخاصة أو العامة لكل مسلم، ليستنبطوا الدروس والعبر من قصصهم، لأن الله لم ينزلها ضمن القرآن الكريم آياتا تتلى فقط، إن لم يكن له في ذلك حكمة العبرة والقدوة، ويكفيني فيما ذهبت إليه دليلا، قول الله تعالى: ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة**﴾ "الأحزاب/22" وكذا بقية الرسل والأنبياء، وكلهم كانوا روادا للإصلاح.

هذا هو الهدف من وقوف المفسرين المصلحين عند مسألة النبوة للتنبيه على رسالة الإصلاح، وأنها متكررة، ما دام الفساد متكررا، دون ملل أو قنوط من رحمة الله، أو بالنتائج والآثار القليلة التي يحققها المصلحون على صرح الفساد الكبير، وأن المهم هو السعي قدر المستطاع، هذا ما قاله نبي الله شعيب لقومه: ﴿**إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت**﴾ "هود/18" وهي سنة الله في خلقه أن يكون الإصلاح إلى جانب الفساد في تنافس دائم للفوز بالكمال البشري المطلوب.

[1] -محمد المكي الناصري، التيسير في أحاديث التفسير، ج3، ص140-141.

ذلك ما استنتجته من تفسير الشيخ ابن باديس للقصص القرآني، ذلك أن هذا القصص هو نقطة الوصل بين القدامى والمعاصرين.

فالشيخ ابن باديس يدعو إلى الإقتداء والاهتداء بهم، وتحت عنوان فرعي "سلوك" قال: "الأنبياء والمرسلون أكمل النوع الإنساني وهم المثل الأعلى في كماله وقد كان أَصْلُ كَمَا لِهِمْ بطهر أرواحهم وكَمَالها، فأقبل على روحك بالتزكية والتطهير والترقية والتكميل، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالإقتداء بهم والاهتداء بهديهم، وقد قال الله تعالى لنبينا عليه وعليهم الصلاة والسلام: ﴿**أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده**﴾ "الأنعام/92" [1].

ثم يتوجه المفسر في آخر هذا الدرس وعنوانه (منزلة الرسالة العليا والضرورات البشرية) داعيا وموجها ومرشدا إلى حقيقة قد يجهلها البعض الذين يروا في القصص القرآني تسلية أو حكاية في الزمن الغابر تُقرأ لتُعرف فقط فقال: "فاقرأ ما قصه القرآن العظيم من أقوالهم وأعمالهم وأحوالهم وسيرهم وتفقَّه فيه وتمسك به تكن –إن شاء الله تعالى– من الكاملين فهل لنا في هذا القصص وفي شخصية الأنبياء وأعمالهم وأقوالهم قدوة[2]. وبهذا التنبيه من المفسر يرد على المقرضين باستحالة الإقتداء بالأنبياء، أو بعدم ضرورته، لأنهم أنبياء، فكيف يكونون قدوة للبشرة إذا لماذا قال الله تعالى مخاطبا المؤمنين: ﴿**ولقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة**﴾ "الأحزاب/21"وكيف

[1] – مجالس التذكير، ص240 (تفسير قول الله تعالى: ﴿أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم لتأكلون...﴾ سورة الفرقان الآية 20.

[2] – المصدر نفسه، ص 241.

تفسر اختيار الله تعالى الأنبياء والرسل من البشر، ليخاطبوا البشر ويكونوا قدوة لهم فيما يأمرونهم به، وينهونهم عنه، وإلا لكان الله قد اختار نماذج نورانية من الملائكة.

هذا ما وضَّحه الشيخ عبد الحميد ليرفع اللبس به عن هذه المسألة، ويصحح هذه المفاهيم الخاطئة فقال تحت عنوان فرعي سابق "عقيدة": "الرسول إنسان ذو روح طاهرة نورانية علوية بما تأتي له تلقي الوحي من الملائكة، وذو جسد بشري تجري عليه ضروريات البشرية الخلقية دون نقائصها الكسبية، لأنه مصرف بتلك الروح العلوية الطاهرة التي لا يصدر عنها إلا الخير، وبهذا الجسد البشري تأتى للبشر الأخذ عنه والإقتداء به"[1].

إذا هذا توجيه عام إلى ضرورة الإقتداء بالأنبياء، وقراءة قصصهم وفهمه والاعتبار بما فيه من دروس وعبر.

هذا وقد نجد تفصيلا لبعض المواضيع التي توجب الإقتداء بالأنبياء في العصر الحالي ولو كان الفارق الزماني بين أحداثه وأحداث هذا العصر مئات القرون ولنضرب لذلك أمثلة من تفسيره:

1- الإقتداء بالأنبياء في التواضع في العلم: نبَّه المفسر إلى هذه المسألة الهامة وهو بصدد تفسير قول الله تعالى: ﴿**فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبإ بنباء يقين**﴾ "النحل/22" فبعد وقوفه على ألفاظ الآية ومعناها انتقل إلى استنباطاته التوجيهية المستخلصة من الآية فقال تحت عنوان فرعي "عزة العلم وسلطانه": "ابتدأ الهدهد جوابه معتزا بما أحاط به من العلم متجملا بما حصل منه مظهرا لارتفاع منزلته به متحصنا به من العقاب ولم تمنعه عظمة سليمان

[1] - المصدر نفسه، ص239

عليه الصلاة والسلام من إظهار علمه وإعلان اختصاصه به دون سليمان"[1]. هذا ما يستنبط من قول الهدهد الذي جاء سليمان بعلم لم يعلم به وهو نبي، ورغم إحساس سليمان بذلك الإعجاب بالعلم الذي بدا على الهدهد، إلا أنه استمع إليه ولم يزجره، وهذا ما ينبغي أن يكون قدوة للعالم والمتعلم المستمع، ولهذا ركز الشيخ المفسر على هذه المسألة ليجعل منها هديا قرآنيا يهتدي به خاصة مع ما كان يراه ويسمعه عن أناس اغتروا وأعجبوا بعلمهم فقال منبها وداعيا إلى ضرورة الإقتداء بهذا الموقف الذي حكاه القرآن بين النبي سليمان –عليه السلام– وبين الهدهد.

ونبَّه إلى ذلك من خلال عنوان فرعي آخر "أدب وإقتداء" قائلا: "قد سمع سليمان هذا، من الهدهد وأقره عليه فللصغير أن يقول للكبير وللحقير أن يقول للجليل علمت ما لم تعلم وعندي ما ليس عندك إذا كان من ذلك على يقين وكان لقصد صحيح، ومن أدب من قيل له ذلك ولو كان كبيرا جليلا أن يتقبل ذلك ولا يبادر برده وعليه أن ينظر فيه ليعرف مقدار صدق قائله فيقبله أو يرده بعد النظر والتأمل إذ قد يكون في أصغر مخلوقات الله وأحقرها من يحيط علما بما لم يحط مثل سليمان عليه الصلاة والسلام في علمه وحكمته واتساع مدركاته"[2] إذا هذا هو الأدب الذي يجب على العالم والمستمع له أن يتأدب به اقتداء بالنبي سليمان. ثم ينتقل المفسر إلى الشطر الثاني من العنوان وهو الإقتداء فيقول: "وكفى بمثل هذا زاجرا لكل ذي علم من الإعجاب بعلمه والاغترار بسعة اطلاعه والترفع عن الاستفادة ممن

[1] – مجالس التذكير، ص350.

[2] – نفسه.

دونه"[1]. وما أكثر ما انتشر هذا المرض في المجتمع، وفي الأوساط العلمية، وخاصة بين بعض الأساتذة والطلبة، وبعض العلماء وطلبتهم. هذا ما دعا إليه ابن باديس في المنهج الصالح للتعليم بعد انتقاده لمناهج التعليم السائدة، حين أكد على أن العلاقة الحميمة، والرابطة الحسنة بين المعلم وتلميذه لها أثر فعال على التحصيل العلمي، ودعا الأساتذة والعلماء الذين يصنعون لأنفسهم سياجا مكهربا لا يقترب منه أحد، ويؤكدون لطلبتهم أن العلاقة بينهم تنتهي بانتهاء الوقت المحدد للدرس، أن يبتعدوا عن هذه الآداب القبيحة ويتحلوا بأدب التواضع تاركين العجب بعلمهم جانبا وهذا ما أكده في هذا الدرس أيضا تحت عنوان فرعي تالي للعنوان السابق "مدرك عقيدة" فقال: "لا يعلم أحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام شيئا مما غاب عنه إلا بإعلام الله فليس لهم كشف عام عن جميع ما في الكون وإنما يعلمون منه ما أطلعهم الله عليه ومن مدارك ذلك هذه القصة فإن سليمان عليه الصلاة والسلام لم يكن يعلم من مملكة سبأ شيئا حتى أطلعه الله عليه بواسطة الهدهد، وإذا كان هذا حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فغيرهم من عباد الله الصالحين من باب أحرى وأولى"[2]. وأنا أقول إذا كان هذا الخطاب موجها كما يقول ابن باديس إلى عباد الله الصالحين، والأمر بالإقتداء بالنبي سليمان –عليه السلام– في مجال العلم، فماذا أقول لمن يتصفوا بصفة العجب هذه، وهم لا يملكون في هذه الدنيا علما ولا خلقا، ويحسبون أنفسهم أعلم العلماء متكبرين على الناس ممن هم أحسن منهم علما وأكبر درجة بشهادة من حولهم لا أملك إلا أن أقول لهم اقتدوا بالنبي سليمان وهو نبي الله وتواضعوا لعل الله

[1] – نفسه.

[2] – المصدر نفسه، ص351.

يرفعكم لأن من تواضع لله رفعه، ومن تكبر وأعجب بنفسه قصم الله ظهره كما جاء في الحديث القدسي ولنا في المجتمع نماذج كثيرة من هذا النوع نسأل لهم الله الهداية والشاعر يقول:

ملئ السنابل تنحنين تواضعا والفارغات رؤوسهن شوامخ

2- الإقتداء بالأنبياء في طلب العلم والسعي في تحصيله:

دعا الشيخ عبد الحميد بن باديس إلى الإقتداء بالأنبياء في طلبهم للعلم رغم ما علَّمهم الله تعالى مرغِّبا في ذلك. وهو يفسِّر قول الله تعالى: ﴿**وورث سليمان داوود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين**﴾ "النحل/16".

استغل المفسر تفسيره لهذه الآية لينبِّه على قضية هامة، بعد جهاد متواصل داخل جمعية العلماء المسلمين ودعوتها للإصلاح للنهوض بالأمة الجزائرية، وطرد المستعمر الفرنسي، إذ رأى في العلم وسيلة قوة لتشييد ملك عظيم، لا سيما أنه قطع شوطا كبيرا في عملية النهضة للثورة ضد المستعمر. خَلُصت إلى هذا لأنه فَسَّر هذا النص مشافهة ونشره في الشهاب[1] قبل خمس سنوات من اندلاع الثورة التحريرية، وقبل عام من وفاته وبعد سنوات من العمل الدعوي. إضافة إلى ما كان يراه المفسر من قوة المستعمر بسلاحه وعلمه أراد أن ينبه على هذه الحقيقة فقال تحت عنوان فرعي "ترغيب وإقتداء": "يذكر الله تعالى لنا في شأن هذا النبي الكريم ما أعطاه من علم وما مكنه منه من عظيم الأشياء ترغيبا لنا في طلب العلم والسعي في تحصيل كل ما بنا حاجة إليه من أمور الدنيا وتشويقا لنا إلى ما في هذا الكون من عوالم الجماد

[1] - نشر هذا الموضوع في الشهاب، ج3، ص15، بتاريخ/ ربيع الأول 1358هـ- أفريل 1939.

وعوالم الأحياء وبعثا لهممنا على التحلي بأسباب العظمة من العلم والقوة وحثا لنا على تشييد الملك العظيم الفخم على سنن ملك النبوة، فقد كان سليمان عليه الصلاة والسلام نبيا وما كان ملكه ذلك إلا بإذن الله ورضاه، فهو فيما ذكره الله من أمره قدوة وأي قدوة مثل سائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين"[1] فما أحوج الأمة خاصة في هذا العصر إلى هذه القوة لتحرير فلسطين والعراق وأفغانستان وسائر الدول الإسلامية من الاستعمار الغربي أو من تبعيته!.

3-الإقتداء بالأنبياء في تفقد أحوال الرعية:

إن حق الرعية على راعيها أن يتفقد أحوالها ويباشر أعمالها ويسأل عن أمورها، وهذا واجب كل راع مسؤول عن رعيته أما واجب الحاكم فهو أوكد لأنه خليفة عن النبيﷺ في حراسة الدين، وسياسة الدنيا به، بل هو كما قال ابن خلدون في تعريف الخلافة: "وهي خلافة عن الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به"[2].

وعلى عادة الشيخ عبد الحميد بن باديس في تفسيره الفريد المتميز بعناوينه الفرعية، نجده ينبه على هذه المسألة، ويدعو الحكام والمسؤولين إلى الإقتداء بسليمان النبي عليه السلام في تفقد أحوال الرعية ومعرفتها، خاصة والمجتمع في تلك الفترة مازال قابعا تحت نير الاستعمار ينهشه مرضان: مرض الجهل ومرض الفقر والحاجة فنبَّه على هذا الواجب، وهو يفسِّر قول الله تعالى: ﴿**وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين**﴾ "النحل/20"، تحت عنوان "تعليم وقدوة"، قال: "من حق الرعية على راعيها أن يتفقدها ويتعرف على أحوالها إذ هو مسؤول عن الجليل

[1] - مجالس التذكير، ص337.

[2] - المقدمة، ص 114.

والدقيق منها، يباشر بنفسه ما استطاع مباشرته منها ويضع الوسائل التي تطلعه على ما غاب عليه منها وينيط بأهل الخبرة والمقدرة والأمانة تفقد أحوالها حتى تكون أحوال كل ناحية معروفة مباشرة لمن كلف بها فهذا سليمان على عظمة ملكه واتساع جيشه وكثرة أتباعه قد تولى التفقد بنفسه، ولم يهمل أمر الهدهد على صغره وصغر مكانه. وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: "لو أن سخلة بشاطئ الفرات يأخذها الذئب ليسأل عنها عمر»، وهذا التفقد واجب على كل راع في الأمم والجماعات والأسر والرفاق وكل من كانت له رعية"[1].

فهذا توجيه وإرشاد لكل راع مسؤول عن رعيته ليقوم بواجبه تجاه المسؤول عنهم مهما كان منهم ومكانتهم في المجتمع، ولهم في نبي الله قدوة حسنة، وأي قدوة.

4-الإقتداء بالأنبياء في المحافظة على الأذكار: أثار الشيخ عبد الحميد بن باديس هذه المسألة، عند تفسير قول الله تعالى: ﴿**ولقد آتينا داوود وسليمان علما، وقالا الحمد لله الذي فَضَّلنا على كثير من عباده المؤمنين**﴾ "النحل/15". فهو يرى أنَّ أفراد المجتمع قد ابتعدوا عن أداء الأذكار من حمد وتسبيح وتهليل، إلا النادر القليل، وربما كان السبب في ذلك انشغال الناس بالفقر والشقاء والحالة المزرية التي كانوا يعيشونها، والاستعمار مطبق على نفوسهم محتكر لحرياتهم، أو بسبب الجهل، مع أنه من المفروض أن تكون هذه الأذكار وسيلتهم في التقرب إلى الله طالبين منه أن يفرج كربهم، فقال تحت عنوان فرعي "إرشاد وإشادة": "أذكار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من حمد وتسبيح وتهليل وغيرها أفضل الأذكار وأجمعها وأسلمها وقد اشتمل الكتاب العزيز على كثير منها، فعلى المسلم الحريص على الخير

[1] – ابن باديس، المصدر السابق، ص345-346.

أن يأخذ بها علما وعملا فقد رأيت ما يحف بإظهار الفرح بنعمة الله من مخاطر إذا لم ينتبه لها، وقد جاء هذا الحمد النبوي محصلا للقصد سالما من كل خطره بعباراته الموزونة الشاملة التي لا يصدر مثلها إلا منهم لكمال علمهم وأدبهم عليهم الصلاة والسلام"[1].

ولأهمية موضوع الأذكار والذكر، فقد كانت الموضوعات الثلاثة المتصدرة لتفسيره "مجالس التذكير" هي: الذكر[2]، والتذكير[3]، وأفضل الأذكار[4] إذ نبه المتلقين إلى أن القرآن هو أفضل الأذكار وقسمه إلى ثلاثة أقسام[5] فقال:

1- القرآن والذكر القلبي ويقصد به تأمل القلب وتدبر.

2- القرآن والذكر اللساني ويقصد به ذكر اللسان.

3- القرآن والذكر العملي ويقصد به عمل الجوارح.

5- الإقتداء بالأنبياء في التنظيم العسكري:

لا شك أن الفترة التي عاشها المفسر كانت تعج بالفوضى والاضطراب عموما، بسبب الاستعمار المتسلط والحالة المتردية التي آل إليها المجتمع، خاصة أن بوادر الثورة ضده بدأت تلوح في الأفق، وهذا ما كان ابن باديس وزملاؤه في جمعية العلماء يهيئون

---

[1] - مجالس التذكير، ص333.

[2] - نشر موضوع الذكر في الشهاب، ج2، م5، غرة شوال 1347/ مارس 1929م، ص1-7.

[3] - ونشر موضوع التذكير في الشهاب، ج1، م5، رمضان 1347هـ/ فيفري 1929م.

[4] - ونشر موضوع أفضل الأذكار في الشهاب، ج3، م5، غرة ذي القعدة 1347هـ/ أفريل 1929م.
والقسم العملي منها في الشهاب ج4، م5، ذو الحجة 1347هـ/ ماي 1929م.
* يلاحظ تقدم موضوع التذكير بحسب النشر، غير أن جامع هذه الدروس لم يراع هذا الترتيب الزمني.

[5] - للمزيد من التفصيل في هذه الموضوعات الثلاثة أنظر مجالس التذكير ص40-46.

له، ويؤلفون الرجال لأجله كما قال ابن باديس "شغلنا بتأليف الرجال عن تأليف الكتب".

ولهذا كان يعمل سريا للغاية، وظل المفسر يدعو إليه من خلال دروس التفسير تلميحا لا تصريحا وهذا النص أحد النصوص التي استغلها المفسر ليدعو إلى النظام في كل عمل، لاسيما للعمل الثوري خاصة إذ يحتاج إلى ذلك أكثر من غيره، لأنه سيكون في مواجهة القوة الثالثة عسكريا آنذاك في العالم[1]. والشيخ يفسر قول الله تعالى: ﴿**وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون**﴾ "النمل/19".

عبر المفسر عن آماله في الثورة ضد المستعمر دون تصريح بذلك مخافة أن يُمنع من إتمام تفسيره لكتاب الله، بهذا العنوان الفرعي "تاريخ وقدوة" فقال: "تفيدنا الآية صورة تامة لنظام الجندية في ملك سليمان فقد كان الجنود يسرحون من الخدمة ويجمعون عند الحاجة، وكانت أعيانهم معروفة مضبوطة وكانت لهم هيئة تعرفهم وتضبطهم وتجمعهم عند الحاجة وكان لهم ضباط يتولون تنظيمهم، وكان النظام محكما لضبط تلك الكثرة ومنعها من الاضطراب والاختلال والفوضى[2]".

تعرض علينا الآية هذه الصورة التاريخية الواقعية تعليما لنا وتربية على الجندية المضبوطة المنظمة، ولا شك أن الخلفاء الأولين قد عملوا على ذلك في تنظيم

[1] – نشر هذا الدرس في الشهاب ج4، م15، ربيع الثاني 1358هـ-ماي 1939م.
وبعد خمس سنوات من هذا التاريخ اندلعت ثورة التحرير الجزائرية.

[2] – وهو هنا يخاطب القائمين على التنظيم للثورة السرية.

جيوشهم[1] وأن مثل هذه الآية كان له الأثر البليغ السريع في نفوس العرب لما أسلموا فسرعان ما تحولوا إلى جنود منظمة مما لم يكن معروفا عندهم في الجاهلية، وبقيت الآية على الدهر مذكرة لنا بأن النظام أساس كل مجتمع واجتماع، وأن القوة والكثرة وحدهما لا تغنيان بدون نظام، وأن النظام لا بد له من رجال أكفاء يقومون به ويحملون الجموع عليه وأولئك هم الوازعون"[2].

فهو يخاطب أفراد الشعب بلهجة الثقة بالنفس، وعدم الإحساس بالضعف واليأس والإحباط أمام ما يرونه من التنظيم العسكري للعدو الفرنسي وآلياته الحربية المدججة، فلهم في جنود الرسول ﷺ وجيوش الخلفاء قدوة حسنة، وانتصارهم على قوى الشر والكفر والفساد خير شاهد على ذلك.

كما يلمِّح المفسر إلى ضرورة اختيار الأكفاء من الرجال ليقوموا بهذا النظام حتى يحقق العمل آثاره ونتائجه، وهو بهذا يدعو إلى حسن اختيار القادة والمسؤولين عن العمل الثوري الذي كان ينظم ويهيأ سِرًّا – والله أعلم–.

6– الإقتداء بالأنبياء في الصبر على الأذى في سبيل الدعوة والإصلاح:

وأختم هذا المحور بما ذكره ابن باديس في مقدمة تفسيره لآيات سورة النحل حول أهمية النبوة ومنزلتها، وهو ما يفسر توجيهه للمسلمين في مجتمعه وفي كل المجتمعات المسلمة، إلى ضرورة الاهتمام بتلك القدوات النبوية، والعمل على ترجمتها في الواقع المعيش.

---

[1]– وهذه دعوة أخرى تلميحية إلى ضرورة الاقتداء بالخلفاء الراشدين والسلف الصالح.

[2] – مجالس التذكير، ص339.

إذ يقول في عنوان "تمهيد": "النبوة منزلة من الكمال التام البشري يهيئ الله لها من يشاء من عباده فيكون بذلك مستعدا لتلقي الوحي والاتصال بعالم الملائكة ولتحمل أعباء ما يلقى إليه وتكاليف تبليغه بالقول والعمل وتحمل كل بلاء يلقاه في سبيل ذلك التبليغ"[1]. والرسل والأنبياء هم رواد الإصلاح، ولهذا فالمفسر يقدم هذه القدوة له ولغيره من المصلحين والدعاة ليعملوا بها، ويقتدوا بهؤلاء الأنبياء في صبرهم على الأذى الذي لا تماثله قوة في سبيل تبليغ دعوتهم قولا وعملا، ونبذ الفشل والإحباط، بل عليهم أن يداوموا على السعي لإصلاح أحوال مجتمعاتهم رغم كل تلك المضايقات والمعارضات ليتحقق لهم النجاح ويظهر أثر الإصلاح ولو كان قليلا مقارنة بالفساد الكثير.

إذن، بهذا تظهر أهمية تركيز المفسر المصلح على مسألة النبوة أثناء تفسيره الشفاهي الذي كان يخاطب به العامة والخاصة على حد سواء، فلم يكن التفسير الشفاهي يمر على مسألة النبوة مرور القارئ لها الشارح لمعانيها، السارد لحكاياتها الماضية، بل مرور المعتبر والمتعظ المركز على دور الأنبياء في القدوة.

المحور الثاني: تصحيح بعض المفاهيم العقدية الخاطئة

استنتجت في المحور الأول أن تركيز التفسير الشفاهي على أهم مسائل العقيدة، لا خلاف بينه وبين التفسير المكتوب. غير أن التفسير الشفاهي كان يستند إلى بعض الأمثلة الواقعية، ذلك أن هذه المسائل إخلاص العبودية لله، والإيمان باليوم الآخر والإيمان بالنبوة هي أساس بناء الشخصية المؤمنة السوية منذ أن بعث النبي ﷺ غير أن الاختلاف بين هذين اللونين في التفسير يظهر جليا عند تصحيحهم لبعض

[1] – مجالس التذكير، ص340.

المفاهيم الخاطئة في العقيدة، أين يتجلّى إحكام الصلة بين النص والواقع بوضوح. ولهذا مهدت لهذا المحور بتوطئة موجزة حاولت من خلالها إبراز الأسباب المؤدية إلى هذا الفهم الخاطئ لبعض مسائل العقيدة التي بينتها في المحور الأول، من خلال تحليل أوضاع المجتمع في فترة الإصلاح الحديثة.

من خلال ما يذكره بعض المفسرين المصلحين في العصر الحديث عن أوضاع مجتمعاتهم تبين لي أن الأسباب المؤدية إلى هذه الفهوم الخاطئة لبعض مسائل العقيدة لا تنفك تكون مشتركة بين المغرب والمشرق العربيين. هذا ما يؤكده الدكتور بركات محمد مراد بقوله: "إن كلمة الإصلاح ليست غريبة عن الإسلام، فالقرآن الكريم ساهم في نشر فكرة الإصلاح في الجماعة الإسلامية، ومن الآيات الكثيرة، الآية التي اتخذت شعارا لدى كافة المصلحين ﴿**إن أريد إلاَّ الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب**﴾ "هود/18".

إن جذور حركة الإصلاح الديني تعود إلى تعاليم الإسلام نفسه، إذ توجد هذه الجذور في القرآن، وفي الحديث المشهور عن النبي ﷺ-: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل سنة من يجدد لها دينها"[1]، والحديث النبوي الذي يعلن عن التجديد الدوري، يبدو في النهاية كحقيقة مقدسة، أثبتت صحتها الأيام، فعلى توالي القرون يمكن تبين هؤلاء المصلحون المجددون في مختلف العالم الإسلامي. لكن مفهوم التجديد يبدو معقدا شرط المجدد أن "يبين السنة من البدعة ويكثر العلم ويعز أهله،

[1] – رواه أبو داود في كتاب الملاحم من سننه، والحاكم في المستدرك، والبيهقي في معرفة السنن.

ويقمع البدعة ويكسر أهلها، ومن لا يكون كذلك لا يكون مجددا البتة، وإذا كان عالما بالعلوم المشهورة بين الناس مرجعا لهم"[1].

"أما باحث اليوم فيرى أن التجديد يأخذ معنى التذكير بهدى السنة وإحياء الممارسات الدينية ومحاولة إعادة تشكيل العقيدة الإسلامية عبر طريقة جديدة في تفسير القرآن والحديث، وإعادة صياغة مفهوم الدين صياغة صحيحة، حيث تشكو العقيدة الشعبية من بعض الانحرافات نتيجة الجهل أو فساد الشعور الديني"[2].

إن المتتبع للأوضاع الدينية في المشرق والمغرب يلاحظ انتشار الجهل وفساد الشعور الديني خاصة في العصر الحديث.

أما في المغرب العربي وعلى سبيل المثال وفي الجزائر فقد كان الوضع الديني المتسم بالجهل والفساد دافعا إلى انتشار هذه المفاهيم الخاطئة التي غذَّتها فيه الطرق الصوفية والزوايا إذ استطاعت منذ زمن بعيد أن تنهض بدور هام وخطير في مناهضة الاحتلال ومحاربة الفرنسيين، ويكفي دليلا على ذلك أن الأمير عبد القادر هو ابن الشيخ مرابط من مشايخ الطرق الصوفية هي الطريقة القادرية[3]، وأن مشايخ الطريقة الرحمانية كان لهم دور جهادي بارز في مقاومة الاحتلال، حيث شاركوا مشاركة فعالة في ثورة القبائل عام 1870م. وعدا ذلك فقد قامت الزوايا الصوفية في بعض الأطوار على تقوية الروابط الاجتماعية بين فئات الشعب وخاصة بين العرب والبربر، وساهمت

---

[1] – عبد المتعال الصعيدي، المجددون في الإسلام، مكتبة الآداب، القاهرة، بدون تاريخ، ص 11-16.

[2] – بركات محمد مراد، فلسفة الإمام ابن باديس في الإصلاح والتجديد، الصدر لخدمات الطباعة، مصر، ط1 (1992)، ص 141-142.

[3] – تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، ص 210

إلى حد بعيد في حفظ الدين الشعب ولغته..."[1]. غير أن هذه الزوايا ما لبثت أن انحرفت عن غايتها المحمودة، فتسلط عليها شيوخ جهلة، استغلوا مكانة الزوايا في قلوب العامة، فخلعوا على أنفسهم صفات الألوهية، وأوهموا المريدين واستمالوا العامة لظواهرهم "فمالت إليهم لتقربهم إلى طريق السعادة بالريادة التي هي على العامة أيسر من العلم وباعتقاد أن شيوخهم يحملون عنهم تقصيرهم في الدين، فكان للصوفية فيهم نفوذ"[2].

وصارت الأوضاع الطرقية مبْنِيَّةً كما قال ابن باديس على الغلو في الشيخ، والتحيز لأتباع الشيخ وخدمة دار الشيخ إلى ما هنالك من استغلال وإذلال، ومن تجميد للعقول وإماتة للهمم، وغير ذلك من الشروط[3].

ولذلك أدرك ابن باديس وزميله البشير الإبراهيمي حين اجتمعا بالمدينة المنورة عام 1913م ليتدارسا أحوال الجزائر، ويحاولان تشخيص الداء أن هناك استعمارين مشتركين يمتصان دمه ويتعرقان لحمه ويفسدان عليه دينه ودنياه: استعمار مادي هو الاستعمار الفرنسي، وآخر روحاني يمثل شيوخ الطرق المؤثرون في الشعب والمتلفلفون في جميع أوساطه، المتجرون بالدين، والمتعاونون مع الاستعمار عن رضى وطواعية.

"فالاستعمار الفرنسي كان يقف من وراء هذه الطرق مساندا ومشجعا ومحرضا لها على ممارسة صنوف شتى للانحراف والأضاليل، حتى يتحقق له ما يبتغيه، وهو تخدير الشعب وبث روح الانهزامية بين صفوفه، ونشر التواكل والكسل بينهم وتثبيط

---

[1]- المصدر السابق، ص 30-31

[2]- المصدر نفسه، نقلا عن محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، ص 126.

[3]- أنظر عمار طالبي، ابن باديس حياته وآثاره، ج3، ص133

الهمم في الاستعداد والكفاح من أجل الاستقلال. ولذلك لم يكن من الغريب أن يشارك المستوطنون الأوروبيون (الكولون) في تقديس المزارات الصوفية والإيمان بأصحابها، وزيارة قبورهم، وتقديم النذور لها، كما يفعل المسلمون إمعانا في التحذير وتضليل أبناء الشعب"[1].

فكان استغلال هؤلاء الشيوخ لبساطة الشعب وتدينه الفطري دافعا للتأثير عليه والثراء على حسابه ثراء فاحشا تساندهم في ذلك سلطة الاستعمار، فشيخ الطريقة القادرية مثلا كان يملك مزرعة فيها حوالي ثلاثين ألفا من النخيل في وادي سوف، وكل هذا عطاء من أولئك الذين يبغون دخول الجنة في موكبه"[2].

وكان هناك سبب جوهري آخر دفع ابن باديس وجماعته الإصلاحية إلى تحديد الحملة على هؤلاء الطرقيين. وهو أن كثيرا من مشايخ الطرق وقعوا في شَرَك المستعمرين وتعاونوا معه عن سذاجة أو عن تبصر حتى كانت طرقهم "إذا دعاها داعي السلطان، ليت خاضعة مندفعة، وإذا دعاها داعي الأمة ولت على أعقابها مدبرة"[3].

ولهذا رأى ابن باديس أن المعركة ضد هؤلاء الصوفية مقدمة حتى على المعركة ضد الاستعمار لأنهم يشكلون –في نظره– عاملا رئيسيا من عوامل التخلف والجمود في المجتمع، كما أنهم أصبحوا حجر عثرة في وجه الداعين للإصلاح.

---

[1]– أنظر الوصف الذي كتبه البشير الإبراهيمي حول مشاركة المعمرين في تقديس مزارات الصوفية في عيون البصائر، ص 356.

[2]– مالك بن نبي، شاهد على القرن، ص 324

[3]– عمار طالبي، ابن باديس حياته وآثاره، ج3، ص 369.

ونحن إذ نركز الكلام على الأوضاع في الجزائر، لأن هذه أفكار الطرقية والصوفية هي ما كان منتشرا في بلدان مغربية أخرى وفي بلدان المشرق تحت مسميات مختلفة فقط. باستقرائي لتفسير الشيخ عبد الحميد بن باديس لاحظت تشخيصه بعض صور الشرك وهي النتيجة الحتمية لفهم خاطئ لبعض قضايا العقيدة لا تخرج عن صورتين أساسيتين: الشرك القولي، والشرك العملي. سنقدم نموذجا لكل صورة نقف من خلالها على أساليب هذا الشرك مستندين في ذلك إلى النماذج الواقعية التي ساقها المفسرون. ليتضح خطرها في ذلك الوقت، وفي كل وقت لاسيما أننا مازلنا إلى يومنا هذا نشاهد بعضا من هذه الصور رغم جهود هؤلاء المصلحين المفسرين وغيرهم، وهذه سنة إلهية منذ إرسال الأنبياء وفي هذا المقام نجد المفسر يُنظّر لهذه القضية قائلا:«ولنبدأ من الإيمان بتطهير عقائدنا من الشرك وأخلاقنا من الفساد وأعمالنا من المخالفات ولنستشعر أخوة الإيمان التي تجعلني كجسد واحد».

وعليه قسمت هذا المحور إلى نقطتين: أولا:تصحيح بعض صور الشرك القولي، ثانيا: تصحيح بعض صور الشرك العملي.

أولا: تصحيح بعض صور الشرك القولي

اهتم التفسير الشفاهي بتصحيح مفاهيم خاطئة تتعلق بالعقيدة ذلك أنها تؤثر سلبا على أقوال وأعمال المسلم، كالشرك القولي ونعني به أقوالا يتلفظ بها المسلم خاصة في دعائه يُشْرِكُ بها مع الله غيره من المخلوقات عن جهل منه ذلك أن المفسر المصلح كان ينطلق من واقع مجتمعة محاولا إحكام الصلة بين النص المفَسَّر وبين هذا الواقع المزري ليضع يده على مواطن الخلل فيحاول إصلاحها.

ولنضرب مثالا على ذلك من تفسير ابن باديس في درس، عنوانه: (دعاء غير الله) – وهو يفسر قول الله تعالى:﴿**قل أدعو الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا**﴾ "الإسراء56".

بعد بيان الأحكام المستفادة[1] من الآية، وتحت عنوان فرعي "تطبيق" قال الشيخ: (إذا علمت هذه الأحكام فانظر إلى حالتنا معشر المسلمين الجزائريين وغير الجزائريين، تجد السواد الأعظم من عامَّتنا غارقا في هذا الضلال، فتراهم يدعون من يعتقدون فيهم الصلاح من الأحياء والأموات يسألونهم حوائجهم من دفع الضر، وجلب النفع، وتيسير الرزق، وإعطاء النسل، وإنزال الغيث وغير ذلك مما يسألون ويذهبون إلى الأضرحة التي شُيِّدت عليها القباب، أو ظلمت بها المساجد، فيدعون من فيها ويدقون قبورهم وينذرون لهم ويستثيرون حميتهم بأنهم خدامهم وأتباعهم فكيف يتركونهم وقد يهددونهم بقطع الزيارة، وحبس النذور، وتراهم هنالك في ذل وخشوع وتوجه قد لا يكون في صلاة من يصلي منهم. فأعمالهم هذه من دعائهم وتوجههم كلها عبادة لأولئك المدعوين وإن لم يعتقدوها عبادة، إذ العبارة باعتبار الشرع لا باعتبارهم، فيا حسرتنا على أنفسنا كيف لبسنا الدين لباسا مقلوبا حتى أصبحنا في هذه الحالة السيئة من الضلال) [2].

فالتفسير هنا ركز على إحكام الصلة بين النص والواقع من خلال قول المفسر "فانظر إلى حالتنا معشر المسلمين الجزائريين وغير الجزائريين"، مما يبين أن من بين هذه المفاهيم العقدية الخاطئة التوجه في الدعاء لغير الله وهو شرك قولي ليست منتشرة في

[1] – أنظر مجالس التذكير، ص 157 – 158

[2] – المصدر نفسه، ص 158.

الجزائر فقط بل في غيرها من الأمم الإسلامية الأخرى أيضا، مما يؤكد أنها ظاهرة عقدية فاسدة عامة في بلاد المسلمين شجعها الجهل وغذاها الاستعمار. ثم بدأ بحصر مظاهر هذه العبادة لغير الله وهي الشرك القولي المتمثل في دعاء الأحياء والأموات، رجاء دفع الضر وجلب النفع وتيسير الرزق وإعطاء النسل، وهي كلها أمور لا يقدر على تحقيقها إلا الله تعالى. ثم أكدَّ على ما قلناه في أول الكلام من أن هذه المظاهر من الشرك القولي كانت عن جهل وعدم علم ودراية بما يقولونه ويدعونه بقوله: (فأعمالهم هذه من دعائهم وتوجههم كلها عبادة لأولئك المدعوين وإن لم يعتقدوها عبادة)[1].

ثم نراه في الأخير يعبر عن حسرته على هذه الحالة السيئة من الضلال التي أصبح فيها المجتمع. وصفه لمظاهر الشرك القولي، بأنها لباس مقلوب للدين. هذا ما يبيِّن مراعاة مقتضى الحال في التفسير الشفاهي من خلال العنوان الفرعي الذي تلا عنوان (تطبيق) وهو "تحذير وإرشاد" ومضمونه (فليحذر قراؤنا* من أن يتوجهوا بشئ من دعائهم لغير الله وليحذِّروا غيرهم منه. ولينشروا هذه الحقائق بين إخوانهم المسلمين بما استطاعوا عسى أن يتنبَّه الغافل، ويتعلم الجاهل، ويقلع الضالون عن ضلالتهم، ولو بطريق التدريج، وبذلك يكون قراؤنا قد أدوا أمانة العلم وقاموا بفريضة النصح، وخدموا الإسلام والمسلمين)[2].

فهذا العنوان تحذير من الشرك القولي المتمثل في أدعية الناس للمخلوقات من الأموات والأحياء، والوقوف على القباب والأضرحة ودعاء أصحابها، يظهر فيه

---

[1] – نفسه.

[2] – مجالس التذكير، ص 159.

إحكام الصلة بين النص والواقع، لأن المفسر يخاطب قراء درسه الشفاهي الذي افتتح به بعد إلقائه جريدة الشهاب محذِّرا إياهم من هذه الظاهرة آمرا إياهم بتحذير غيرهم ونشر الحقائق السلمية المتعلقة بتصحيح هذه المفاهيم الخاطئة. هذا هو المطلوب من الإصلاح أن يكون عمليا مرتبطا بالواقع آملا أن يتحقق ولو جزء من الإصلاح العقدي على يدهم، فيكون لهذا التحذير ولهذا الإرشاد إلى الدعاء الصحيح لله وحده أثر ولو كان نسبيا بقوله: (عسى أن يتنبَّه الغافل، ويتعلَّم الجاهل ويقلع الضالون عن ضلالتهم، ولو بطريق التدرج...)[1]. إنَّه الأثر المراد تحقيقه من خلال دروس التفسير الشفاهي، وهو منهج الأنبياء قبل المفسرين متمثلا في قول شعيب عليه السلام: (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت). أي أن الإصلاح لن يكون كاملا، بل بقدر المستطاع، أي بطريق التدرج كما قال ابن باديس.

كما لاحظت أيضا أن التفسير الشفاهي لم يهمل إحكام الصلة بين النص والواقع وهو من أحض خصائصه كلما وجد في الآية إشارة من قريب أو من بعيد إلى ظاهرة عقدية فاسدة، فينظر فيها من زاوية مغايرة وبطريقة تختلف عمَّا سبقت الإشارة إليها في موضع آخر من مواضع تفسيره. وذلك لحكمة نراها –والله أعلم– هي الإحاطة بكل صور الشرك القولي المنتشرة في المجتمع لكي يؤكد على حظورتها ويحث على الإقلاع عنها ولو كان ذلك بطريق التدرج.

تأكيدا على هذا الاستنتاج الذي توصلت إليه بعد استقراء نماذج من التفسير الشفهي أسوق مثالا آخر من تفسير الشيخ ابن باديس لنرى مدى وضوح هذا الأثر في تفسيره.

---

[1] – المصدر نفسه، ص 159

فعند تفسير قول الله تعالى: ﴿**والذين لا يدعون مع الله إلها آخر...**﴾ "الفرقان/68"، وهو بصدد الحديث عن صفات عباد الرحمان قال ابن باديس تحت عنوان فرعي "مزيد بيان لتوحيد الرحمن". ما يزال الذكر الحكيم يسمي العبادة دعاء ويعبر به عنها. ذلك لأنه عبادة... لأن الدعاء مخ العبادة وخلاصتها... فالدعاء هو المظهر الدال على ذلك كله، ولهذا كان مخ عبادته...

وقد جاء التنبيه على هذا في السنة المطهرة، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: "الدعاء هو العبادة ثم قرأ: "وقال ربكم: أدعوني أستجب لكم"[1] وعن أنس رضي الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: "الدعاء مخ العبادة "[2]. فتطابق الأثر والنظر على أن الدعاء عبادة فمن دعا غير الله فقد عبده، وإذا كان هو لا يسمي دعاءه لغير الله عباده فالحقيقة لا ترتفع بعد تسميته لها باسمها وتسميته لها بغير اسمها والعبرة بتسمية الشرع التي عرفناها من الحديثين المتقدمين لا بتسميته"[3]. فالمفسر يوضح حقيقة وماهية الدعاء وأنه مخ العبادة ليؤصل هذه الفكرة ويوضحها للسامعين وللقراء بعد ذلك، ثم يستأنس بالسنة المطهرة تأكيدا لما ذهب إليه ثم ينتقل إلى تحصين تلك القاعدة العامة التي بناها تحت العنوان الفرعي السابق، بعنوان فرعي آخر قبل أن ينتقل إلى عملية الإسقاط. فتحت العنوان التالي للأول "من دعاء شيئا فقد اتخذه إلها" تنبيها على خطورة صور الشرك المنتشرة في المجتمع آنذاك يقول: "لما ثبت أَنَّ الدعاء عبادة فالداعي عابد والمدعو معبود والمعبود إله، فمن دعا شيئا فقد

---

[1] – رواه أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجة

[2] – رواه الترمذي

[3] – مجالس التذكير، ص 299

اتخذه إلهه، لأنه فعل مالا يُفعل إلا للإله، فهو وإن لم يسمه إلها، بقوله فقد سماه بفعله... وعلى وازنه نقول: لما كان الدعاء عبادة والعبادة لا تكون إلا للإله، كان الداعي لشيء من المخلوقات متخذا إياه إلها، لما نزَّله بدعائه إياه منزلة، الإله سواء دعاه وحده دون الله أو دعاه مع الله، والعياذ بالله."[1]

فالتفسير هنا ركز على إبراز صور الشرك القولي المتمثلة أساسا في دعاء غير الله، واعتنى ببيان خطورة هذا الأمر لاسيما أن القائلين الداعين لا يعلمون إنهم يشركون بالله نتيجة جهلهم، وتَعَوُّدُهُمْ على هذا النوع من الأدعية الباطلة التي عبر عنها المفسر بالضلال.

قبل انتقاله إلى عملية الإسقاط، وهو بهذا يتدرج مع المتلقين قبل تشخيص الظاهرة التي يعيشونها مما يسهل عملية التأثير والتأثر وذلك عن طريق دور العقل الفاعل في العقل السائد. فيقول تحت عنوان فرعي أخير ختم به درسه ليكون حصاد ما يريد تحقيقه من أثر من خلال هذا الدرس ما نصه: "تحذير وإرشاد: (ما أكثر ما تسمع في دعاء الناس: "يا رب والشيخ" "يا رب وناس ربي" "يا رب والناس الملاح" وهذا من دعاء غير الله مع الله، فإياك أيها المسلم وإياه، وادع الله ربك وخالقك وحده وحده وحده، وأنف الشرك راغم"[2].

لاحظت أن المفسر عدَّد صورا من الشرك القولي هي صيغ دعاء غير الله مع الله ابتغاء دفع ضر أو جلب نفع، وهو ما يؤكد عملية الإسقاط على الواقع الذي يعبر عن الجانب العملي التطبيقي في هذا اللون من التفسير، ثم حذَّر من هذه

[1] – المصدر نفسه، ص 299-300

[2] – المصدر نفسه، ص 300.

الأدعية الباطلة المتداولة على ألسنة أفراد المجتمع عن جهل منهم ثم يرشدهم بعد ذلك إلى تصحيح هذه المفاهيم الخاطئة.

بهذا نلاحظ مدى فعالية النص في معالجة المشاكل الآنية من خلال التفسير الشفاهي الذي اعتمد أساسا على إحكام الصلة بين النص والواقع، فما الأثر الذي كان هذا الدرس سيتركه في النفوس لو أنه اكتفى بالتفسير التقليدي فقط دون عملية الإسقاط، وبهذا اختص هذا اللون من التفسير عن غيره من ألوان التفسير المكتوب.

إذا عدنا إلى المراحل الزمنية لهذين المثالين من تفسير ابن باديس وجدنا أن الدرس الأول نشره كافتتاحية في جريدة الشهاب في شعبان 1349هـ/ جانفي 1930، وأما الدرس الثاني فكان في رجب 1351 هـ / نوفمبر 1932، مما يؤكد ما قاله نظريا وهو بصدد الحديث عن الصلاح والفساد. "... ولما كان طروء الفساد متكررا، فالإصلاح بما ذكر يكون دائما متكررا"[1]. لهذا – والله أعلم – أراه يُركز في الدرس الأول على دعاء غير الله من الأموات والأحياء بصورة عامة سنة 1930.

ثم لاحظ أن الامتثال لما حذَّر منه وأرشد إليه لم يتحقق إلا قليلا، فرأى سنة 1932 وهو يفسر نصا يدعو إلى عدم عبادة غير الله أن يوسع نطاق ما حذَّر منه بصورة أكثر دقة. فذكر صيغ الشرك بالله المنتشرة مؤكدا على تحقيق نفس الهدف وهو إقلاع الضالين الجاهلين عن ضلالتهم.

ثانيا: تصحيح بعض صور الشرك العملي:

[1] – أنظر: مجالس التذكير، ص 111.

إن هذين اللونين من الشرك القولي والعملي يكادان يكونان متلازمين إذ الشرك يبدأ بالقول ثم بالعمل، والمجتمعات الإسلامية في العصر الحديث كانت حقلا غنيا بهذه المفاهيم العقدية الخاطئة قولا وعملا.

وتمثلت هذه الأعمال المنحرفة التي ترجمت الشرك القولي في الذهاب إلى القباب والقبور والأضرحة والقيام ببعض الطقوس التي تنافي عقيدة التوحيد ظنا من هؤلاء المتقربين أن أصحاب هذه القباب والقبور والأضرحة يملكون كشف الضر عنهم أو تيسير رزقهم أو إمدادهم بالنسل...الخ. وهذا ما تصدى ابن باديس لمحاربته والقضاء عليه. وقد تمكن من الحد من هذه الظواهر المنحرفة إلى حد ما، غير أنها كانت تعود إلى الوجود كالطفيليات. وعلى عاتق الدعاة والمرشدين تبقى مسؤولية القضاء على هاته الظواهر. فوضع لنفسه منهجا سار عليه في سبيل تحقيق هذه الغاية إذ فيقول:«فالإيمان والتقوى —هما العلاج الوحيد– لنا من حالتنا لأننا إذا التزمناهما نكون قد أقلعنا أسباب العذاب ولا ننهض بهذا العلاج العظيم إلا إذا قمنا متعاونين أفرادا وجماعات فجعل كل واحد ذلك نصب عينيه، وبدأ به في نفسه ثم في من يليه من عشيرته وقومه ثم في جميع أهل ملته، فمن جعل هذا من هَمِّه وأعطاهما ما قدر عليه من سعيه كان خليقا أن يصل إلى غايته أو يقرب منها [1]. فهو بهذا يضع منهجا قويما في النهوض بالإصلاح الشامل ويرى أن أولى خطواته البدء بإصلاح العقائد ويقول:«ولنبدأ من الإيمان بتطهير عقائدنا من الشرك وأخلاقنا من الفساد وأعمالنا من المخالفات... ولنشرع في ذلك غير محتقرين لأنفسنا، ولا قانطين من رحمة ربنا ولا

[1] – المصدر نفسه، ص164.

مستقلين لما نزيله كل يوم من فسادنا فبدوام السعي واستمراره يأتي ذلك القليل من الإصلاح على صرح الفساد العظيم من أصله[1].

بناء على ذلك طبق ابن باديس هذا المنهج الذي ينادي به وهو مقاومة الشرك في العقائد والفساد في الأخلاق، في حركته الإصلاحية الجبارة التي نهض بها قبل الحرب العالمية الأولى واستمر يواصلها إلى أن وافاه أجله المحتوم في عام 1940 ومن هنا نفهم سر حملته الجارفة على رجال الطرق الصوفية الذين اتهمهم بأنهم قد أخذوا أنفسهم وأتباعهم بنسك الأعاجم لأنهم اخترعوا أعمالا وأوضاعا من عند أنفسهم وظنوا أنهم يتقربون بها إلى الله زلفى على غرار ما كان المشركون قبل البعثة النبوية يفعلونه من عبادة الأوثان والذبح عليها، يقول ابن باديس:«وكما اخترع طوائف من المسلمين الرقص والزمر والطواف حول القبول والنذر لها والذبح عندها ونداء أصحابها وتقبيل أحجارها، ونصب التوابيت عليها وحرق البخور عندها وصب العطور عليها، فكل هذه الاختراعات فاسدة في نفسها لأنها ليست من سعي الآخرة الذي كان محمد –صلى الله عليه وسلم- يسعاه وأصحابه من بعده فساعيها موزور غير مشكور[2]».كما يتهم رجال الطرق الصوفية بأنهم ادعوا لأنفسهم نوعا من الربوبية حينما زعموا للعامة الساذجة بأنهم قادرون على المنح والعطاء، كما أنهم قادرون على المنع والحرمان، وذلك بقصد استغلالهم وابتزاز أموالهم وصرفهم عن مكافحة الاستعمار الذي يحتل وطنهم إلى التمسح بأعتاب رجال الطرق الصوفية.

---

[1] – نفسه.

[2] – مجالس التذكير، ص 73 المرجع السابق في تفسير الآية "ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا"الآية 19، من سورة الإسراء.

وقد شن ابن باديس حملة جارفة على البدع والضلالات بقصد تطهير عقيدة الجزائريين من مظاهر الشرك التي عمت بينهم بدون أن يشعروا بذلك. يقول ابن باديس:«وصلاح القلب- يعني النفس- بالعقائد الحقة والأخلاق الفاضلة وإنما يكونان بصحة العلم وصحة الإرادة- فإذا صلحت النفس هذا الصلاح، صلح البدن كله بجربان الأعضاء كلها في الأعمال المستقيمة، وإذا فسدت النفس من ناحية العقائد أو ناحية الخُلق، أو ناحية العلم أو ناحية الإرادة فسد البدن وجرت أعمال الجوارح على غير وجه السداد، فصلاح النفس هو صلاح الفرد، وصلاح الفرد هو صلاح المجموع [1].

وتتأكد هذه النتيجة بكلام زميله في الإصلاح في منطقة القرارة الشيخ بيوض وهو الذي اتبع المنهج الإصلاحي في تفسير القرآن الكريم حين قال: "... لأنها –أي المفاهيم العقدية الخاطئة- أشياء تتعلق بالعقيدة والعقيدة إما أن تصح فيصلح العمل ويقبل، وإما أن تفسد فلا ينفع مع فسادها شيء، لأن الذين في عقيدتهم شيء من الزيغ والشرك والتوجه إلى غير الله في ما لا يجوز أن يتوجه فيه إلا إلى الله ينطبق عليهم قوله تعالى:«**وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءا منثورا**» الفرقان/23.

خاتمة البحث: بعد استيفاء البحث في موضوع "البعد الإصلاحي العقدي في تفسير الشيخ عبد الحميد بن باديس"، خلصت إلى مجموعة من النتائج، والأفكار الجديدة قد يسهم بها البحث في حماية عقيدة الأمة وتوجيه فكرها الوجهة السليمة التي تجنبها هدر طاقاتها المادية والمعنوية والتمكين لهويتها العقدية الإسلامية منها:

1. التأسيس للدراسة العقدية المعاصرة من منطلق مرجعية حاكمة الكتاب.

---

(1) – المصدر نفسه، ص96.

2. التعريف بشخصية موسوعية جزائرية اتسم إنتاجها العلمي بالشمولية والدقة والواقعية والوقوف على جهوده في المجال العقدي.
3. النص القرآني العقدي هو أفضل وسيلة لتحقيق الإصلاح في هذا المجال باعتباره المرجعية الأصلية لكل مسلم، عن طريق توجيهه وجهة واقعية تخضع له أوضاع المجتمع المزرية لتحكمه فيها فتصلحه.
4. الأنبياء رواد الإصلاح العقدي الأوائل، وعليه فعلى العلماء والدعاة أن يتخذوا من مسيرتهم قدوة ناجحة لتحقيق هذا الإصلاح.
5. التركيز على أهم مسائل العقيدة وعلى رأسها العبودية الخالصة لله تعالى، منهج أصيل في الإصلاح العقدي لأنه الأساس المتين للعقيدة التي يتشكل على ضوئها فكر الإنسان وسلوكه في واقع حياته العملية.
6. البيئة والأحداث الواقعية لهما كبير الأثر في تشخيص أدواء المجتمع العقدية والمساهمة العملية والفعلية في تحقيق الإصلاح العقدي عمليا.
7. علم التفسير هو العلم الذي لم ينضج ولم يحترق وعليه فالدعوة موجهة إلى الطلبة والباحثين لاستغلال هذا العلم ومناهجه خاصة المستحدث منها وهو التفسير الموضوعي للوقوف على أصول الإصلاح في جميع المجالات عقدية كانت أو أخلاقية أو اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية.
8. يعتمد الإصلاح العقدي في فكر الشيخ عبد الحميد بن باديس على ثنائية محورين أساسين هما: التركيز على أهم مسائل العقيدة وتصحيح بعض التصورات العقدية الخاطئة وهما محورين يؤكدان على ضرورة الاهتمام بإعداد أرضية عقدية صلبة وسليمة في تأصيل وترسيخ مسائل العقيدة في نفس

المتلقي للتمكن بعد ذلك من إصلاح ما فسد منها بسبب التصورات العقدية الخاطئة التي شوهتها. وهو منهج منطقي أراه والله أعلم شبيه بمنهج الرسول –عليه الصلاة والسلام– في تبليغه للرسالة الخاتمة.

9. اهتم الشيخ عبد الحميد بهذه المسائل العقدية من خلال تفسيره لكتاب الله حيث أصّل من خلال بحثها ومناقشتها لفكر عقدي سليم أساسه النص القرآني المفسر. فقد اعتمد الشيخ هذا النص الأثري وسيلة لتحقيق الإصلاح العقدي في المجتمع مريض ينهشه مرضان: مرض الجهل ومرض الاستعمار كيف لا وهو رائد النهضة العربية الإسلامية في الجزائر.

10. فالمسفر في تأصيله هذا اعتمد على المرجعية الأثرية وعلى الواقع وأزماته ليضع يده بصدق على أهم هذه المسائل فيعالجها من زاوية واقعية، ولا يمر عليها مفسرا إياها تفسيرا تقليديا بل كان يحاول إحكام الصلة بين هذه النصوص وبعض المظاهر العقدية الفاسدة ليضع اليد على الجرح فيحسن تشخيصه، ومن ثم يحسن وصف العلاج له.

11. كانت عدته في تبليغ هذه الرسالة العقدية الإصلاحية تبسيط الأسلوب والاستعانة بالأمثلة الواقعية، وانتقاؤه للعناوين الفرعية التي ميزت تفسيره والتي أراها أدوات تنبيه إلى ما يقصد إليه كعنوان "**عقيدة وتوحيد**"، "**عقائد وأدلتها**" من هذه الآيات "**العقيدة الأولى محمد رسول الله –صلى الله عليه وسلم–**"، "**العقيدة الثانية القرآن كلام الله ووحيه**". "**العقيدة الثالثة الإسلام دين الله الذي شرعه وارتضاه**"، "**مدرك عقيدة**".

12. كما لاحظت أن في انتقائه لهذه العناوين ترسيخ لمبدأ إصلاح العقيدة أساس في إصلاح سلوك الفرد وترجمته تصرفاته في حياته الواقعية، كقوله مثلا: "**عقيدة وتعليم**"، "**تحذير وسلوك**"، "**توحيد وسلوك**"، "**عقيدة وسلوك**".
13. الإصلاح العقدي أساس متين وشرط لازم لتحقيق الإصلاح الشامل.
14. لنجاح أي مشروع إصلاحي مهما كانت طبيعته على الدعاة إليه أن يلتزموا بمنهج دوام السعي والاستمرار فيه، حتى يأتي ذلك القليل من الإصلاح على صرح الفساد العظيم من أصله.
15. نظّر الشيخ عبد الحميد بن باديس لفكر عقدي سليم من خلال تفسيره للنص القرآني التطبيقي.
16. العلوم الشرعية تؤصل للفكر الإسلامي وهذا يدحظ مزاعم فرق الطرقية والصوفية الذين يدّعون عكس هذا والدليل على ذلك تأصيل الشيخ عبد الحميد بن باديس لفكر عقدي من خلال علم التفسير.

التوصيات:

1. الاهتمام بتأصيل التراث الشرعي للعلماء الجزائريين في مختلف العلوم.
2. الاهتمام بالإصلاح العقدي والمداومة عليه وتأصيل هذه الفكرة وتطبيقها على أرض الواقع باعتبارها خطوة رائدة في التصدي لمشروع التبشير والتنصير في الجزائر.